جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

الالتفاتُ وأثرُهُ في توجيه الخطابِ القُرآنيّ دراسةٌ موضوعيةٌ دلاليةٌ

إعداد

دكتور: هاني علي عبدالعزيز أبو العلا

المدرس في قسم أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالديدامون-شرقية-جامعة الأزهر الشريف.

البريد الإلكتروني: haniabouelela.sha.b@azhar.edu.eg

العدد الثامن

١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

الالتفاتُ وأثرُهُ في توجيه الخطابِ القُرآنيّ دراسةٌ موضوعيةٌ دلالية

هاني علي عبدالعزيز أبو العلا

قسم أصول اللغة ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، بالديدامون، شرقية، جامعة الأزهر الشريف، مصر

البريد الإلكتروني haniabouelela.sha.b@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى بيان الدقةَ التي تَمَيَّز بها القرآن الكريم في اختيار ألفاظه وكلماته، واساليبه، والالتفاتُ نوعٌ من هذه الأساليب التي هي: نَقلُ الكَلَامِ من أُسلوبٍ إِلى آخَرَ، مِن الغَيبَةِ إِلى الخطَاب، وَمن الخِطَابِ إِلى الغَيبَةِ، وَمن الوَاحدِ إِلى الجَمعِ، وَمن الخطَابِ إِلى التَّكَلُّمِ، وَمن التَّكَلُّمِ إِلى الخِطَاب، إنَّ الالتفاتَ في التعبير القرآنيّ، يثير دهشة القارئ، مما يدعوه ذلك إلى البحث عن سياقه، وأبعاده الدلالية؛ لذلك بين الباحث مفهوم الالتفات، ومكانته، وتطور مصطلحه منذ نشأته، حتى نضجه واكتماله، وكذلك معرفة أسراره اللغوية والدلالية في القرآن الكريم وقد استخدم الباحث منهج العرض والتحليل والمقارنة، لعرض الآيات والأساليب والمقارنة بينها لإظهار جوانبها المختلفة، وكان من نتائج البحث إظهار وجوه الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، الذي تحدَّى فصحاء العرب أن يأتوا بمثله.

الكلمات المفتاحية: الالتفات، التعبير القرآني، الخطاب القرآني، دلالة

Attention and its impact on directing the Qur'anic discourse: an objective semantic study

Hani Ali Abdulaziz Abu Ela
Faculty of Islamic and Arabic Studies for ، Department of Linguistics
Egypt ، Al-Azhar University ، Sharqia ، Boys in Didamon
: Email haniabouelela.sha.b@azhar.edu.eg

: Abstract

The research aims to clarify the accuracy with which the Holy Qur'an distinguished in choosing its words ، words ، and methods ، and paying attention to one of these methods ، which are: transferring speech from one method to another ، from backbiting to speech ، and from speech to speech and from the unseen and from the unseen. Speak ، and from speaking to discourse ، It the attention to the Qur'anic expression amazes the reader ، which calls him to search for its context and semantic dimensions; Therefore ، the researcher explained the concept of paying attention ، its position ، and the development of the term since its inception ، until its maturity and completion ، as well as knowing its linguistic and semantic secrets in the Holy Qur'an. Al-Bayani in the Noble Qur'an ، who challenged the Arab scholars to come up with the same .

Keywords: Pay attention ، Quranic Expression ، Quranic Discourse ، Indication

---

مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده ﷺ ، فقد جعل الله ﷻ القرآن الكريم معجزةَ رسوله الكبرى، والحجةَ الدائمةَ على الخلق، أعجزَ بفصاحته البلغاء، كتابٌ لا تفنى عجائبُه، ولا يخلُقُ على كثرة الردِّ، ولا يشبَعُ منه العلماء، وكلما أمعن المتأملون النظر فيه والفكر وجدوا أنفسهم أمام بحرٍ من المعاني لا ساحلَ له.

وقد انبهر به الناس عَرَبًا وعَجَمًا، وأقبلوا على دراسته آناء الليل وأطراف النهار، فأُلِّفَتْ في علومه المختلفة المؤلفاتُ، فألَّفَ العلماءُ في إعجازه، وأمثاله، وتفسيره، وتشبيهاته، ومحكمه ومتشابهه....، إلخ، وكلُّ ذلك دليلٌ على إعجازه، ولم لا، فمعانيه متجددةٌ حيَّةٌ، تتجدد بتجدد الزمان والمكان، ومع كونه معجزة بيانية خالدة هو – مع ذلك- معجزةٌ تشريعيةٌ ربَّانيةٌ؛ لذلك انصرفت إليه جهود علماء اللغة والبيان لمعرفة أساليبه وبلاغة بيانه، فهو كتاب العربية الأول والبيان الخالد.

وكان الالتفاتُ من المواضيع التي تناولها علماء اللغة في كتبهم، وأَوْلَوْهُ مزيدَ اهتمامٍ؛ لِمَا له من أهميةٍ في اللغة العربية.

والمقصود بالالتفات في السياق القرآني هو: التحول الحاصل من إعادة ذكر الفعل على نسقٍ مخالفٍ لما سبق ذكره في السياق نفسه، وهذه الظاهرة من أبرز الظواهر في التعبير القرآني.

إذ نجد في التعبير القرآنيِّ كثيرًا ما يُغاير في استعمال الأفعال، كأنْ يردَ السياقُ ابتداءً بالفعل الماضي، ثم يتحول عنه إلى المضارع، أو الأمر في السياق نفسه، وكذلك العكس بأن يردَ الفعل في السياق مضارعًا، ثم يتحول عنه إلى الماضي، وهكذا.

من ذلك على سبيل المثال، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (١)، إذ نجد التعبير القرآنيَّ قد عدل عن الفعل المضارع (يُمَسِّكون) إلى الفعل الماضي (أقاموا)، إذ المتوقَّعُ لدى المستمع اطّراد السياق على سبيل المطابقة في الأفعال، فيكون (يمسّكون، ويقيمون)، ومثل هذا الالتفات في السياق القرآني، يفاجئ المستمعَ ويُثيرُ دهشته؛ لخروجه عن المتوقَّع لديه من اطراد السياق على نمطٍ واحدٍ من المطابقة، مما يدعو ذلك المستمع البحث عن سياقاته، وأبعاده الدلالية.

أهمية الموضوع:

إنَّ الالتفاتَ في التعبير القرآنيّ، يُفاجئ المستمع ويُثير دهشته؛ لخروجه عن المتوقع لديه من اطراد السياق على نمطٍ واحدٍ من المطابقة والمشاكلة، مما يدعوه ذلك إلى البحث عن سياقه، وأبعاده الدلالية؛ لذلك حاول هذا البحث الوقوف على

---

(١) – سورة الأعراف : ١٧٠.

بعض صور هذا الالتفات وأثره في التعبير القرآني، فهذه الظاهرة تبرز وجهًا من وجوه الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، الذي تحدى فصحاء العرب أن يأتوا بمثله.

وهذا الالتفاتُ من أهم الظواهر وأوسعها انتشارًا في القرآن الكريم، ولا تكادُ أن تخلو منه سورةٌ من سوره، وقد اهتمَّ به العلماءُ في شتَّى تخصصاتهم منذ قديم الزمن، ولكنهم لم يطلقوا عليه هذا الاسمَ أحيانًا، فقد أسموه (بشجاعة العربية) التي تعني: الإقدام في كل أمرٍ من الأمور، وحالُه كحال الرجل الشجاع الذي يتقدَّم قومَه في الأمور الصعبة، وإضافةً إلى ذلك، فإن بعض اللغويين القدماء قد بالغ في قصر الالتفات على اللغة العربية دون غيرها من لغات الأمم الأخرى، وذلك لتفرده في الأسلوب والمدلول معًا.

إنّ الالتفات يعد أسلوبًا لغويًا من أساليب التعبير القرآني، إذ ينتقل الكلام من التكلُّم إلى الخطاب وإلى الغيبة، ومن الخطاب إلى التكلم وإلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وإلى الخطاب فهذه التقسيمات، ينتج عنها ستة أساليب، تمثل أبرز أساليب الالتفات عند اللغويين، وأول سورة تحمل أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ومن الخطاب إلى الغيبة والعكس هي سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1]، فقد بُدئَ الحديثُ بضمير الغائب لفظ الجلالة (الله)، ثم التفتَ وانتقل بالكلام إلى ضمير المخاطب (إيّاك) خروجًا عن عادتها في استعمال القواعد اللغوية.

ومن هذا المنطلق قمتُ بإعداد هذا البحث، سائلًا ربي التوفيق؛ للوقوف على أسراره اللغوية والدلالية تحت عنوان: " الالتفاتُ وأثرُهُ في توجيه الخطابِ القُرآنيّ دراسةٌ موضوعيةٌ دلاليةٌ ".

فائدة الالتفات:

إنَّ من عادة العرب أن لا تسير على أسلوبٍ واحدٍ في كلامها، بل تنتقل من أسلوبٍ لآخرَ، لدفع السآمة عن المستمع، وصيانة السمع عن الضجَر والملَلِ، فإنَّ النفوسَ جُبِلَت على حُبِّ التنقُّل، والاستمرارُ على منوالٍ واحدٍ من الخطاب يؤدِّي إلى السآمة.

ومن فائدته أيضًا: إِظْهَارُ الْمَلَكَةِ فِي الكلام، والاقتدارُ على التصرُّف فيه.

---

[1] – سورة الفاتحة: ٢ – ٥.

وقد يأتي لغير هذا من المقاصد التي يتحرَّاها العربُ في كلامهم، وهذا الأسلوبُ في الانتقال في الكلام من الأسرار اللغوية؛ لأنَّ فيه تجديدُ أسلوب التعبير عن المعنى بعينه، تجنُّبًا من تكرر الأسلوب الواحد عدة مرات، فيحصُل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع، كي لا يملَّ من إعادة أسلوبٍ بعينه.

الهدف من البحث:

إنَّ الهدفَ من هذا البحث، هو: معرفة مفهوم الالتفات، ومكانته، وتطور مصطلحه منذ نشأته، حتى نضجه واكتماله، وكذلك معرفة بعض أسراره اللغوية والدلالية في القرآن الكريم؛ وجوانب الإعجاز في القرآن الكريم لا تخضع للإحصاء ولا يحيط بها استقصاء.

منهج البحث:

إنَّ المنهج الذي سرتُ عليه – ما أمكن – هو المنهج الوصفي التحليلي حيث يجمع بين النظرية والتطبيق، والذي يعتمد على وصف الظاهرة اللغوية، ومن ثمَّ رؤيتُها وتحليلُها.

وقد اعتمدتُ في تخريج الآيات القرآنية على برنامج مصحف المدينة المنورة للنشر الحاسوبي الإصدار الثاني، مطبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف عام ١٤٣٦هـ.

خطة البحث:

اقتضتْ طبيعةُ البحث أن يكون في مبحثين تسبقهما مقدمةٌ وتمهيدٌ، وتقفوهما مصادر وفهارس فنية متنوعة.

المقدمة، وفيها: ذكرتُ أهمية البحث، وفائدته، والهدف منه، ومنهجه، وخطته.

المبحث الأول: الدراسة النظرية، وفيها مطلبان:

<u>المطلب الأول:</u> مفهوم الالتفات، ونشأته، وتطور مصطلحه.

<u>المطلب الثاني:</u> أقسام الالتفات وصوره.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية لبعض صور الالتفات في القرآن الكريم.

ثم ذيَّلتُ البحث بخاتمةٍ ذكرتُ فيها أهمَّ النتائج والتوصيات التي توصَّل إليها البحث.

وأخيرًا الفهارس الفنية المتنوعة.

المطلب الأول: مفهوم الالتفات، ونشأته، وتطور مصطلحه.

وردت مرادفاتٌ في المعاجم اللغوية لهذا الفنّ (الالتفات)؛ للدلالة على معنى التحول في أسلوب الكلام، والانتقال به من أسلوبٍ إلى آخر، ومما ورد في المعاجم: الصرف عن الجهة، أو اللّيّ، أو العدول بالوجه، أو التلوّن، أو مخالفة مقتضى الظاهر، أو شجاعة العربية، وغيرها من المرادفات الأخرى المؤدية نفس المعنى، وقد كان لمصطلح الالتفات الشيوع والانتشار دون غيره من المرادفات؛ نظرًا لكثرة وروده في كتب اللغويين وأصحاب المعاجم.

الالتفاتُ في اللغة:

مأخوذٌ من: لفت، وهو يدُلُّ على اللَّيِّ، وصرف الشيءِ عن جهته المستقيمة، قال ابن فارس:" (لَفَتَ) اللَّامُ وَالْفَاءُ وَالتَّاءُ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى اللَّيِّ وَصَرْفِ الشَّيْءِ عَنْ جِهَتِهِ الْمُسْتَقِيمَةِ، ومِنْهُ لَفَتُّ الشَّيْءَ: لَوَيْتُهُ، وَلَفَتُّ فُلَانًا عَنْ رَأْيِهِ: صَرَفْتُهُ، وَالْأَلْفَتُ: الرَّجُلُ الْأَعْسَرُ، وَهُوَ قِيَاسُ الْبَابِ: وَاللَّفِيتَةُ: الْغَلِيظَةُ مِنَ الْعَصَائِدِ، لِأَنَّهَا تُلْفَتُ، أَيْ تُلْوَى، وَامْرَأَةٌ لَفُوتٌ: لَهَا زَوْجٌ وَلَهَا وَلَدٌ مِنْ غَيْرِهِ، فَهِيَ تَلْفِتُ إِلَى وَلَدِهَا، وَمِنْهُ الِالْتِفَاتُ، وَهُوَ: أَنْ تَعْدِلَ بِوَجْهِكَ"(١).

وجاء في اللسان:" لَفَتَ وجهه عَنِ الْقَوْمِ: صَرَفَه، والْتَفَتَ التِفاتًا، والتَّلَفُّتُ أَكثرُ مِنْهُ، وتَلَفَّتَ إِلى الشَّيْءِ والْتَفَتَ إِليه: صَرَفَ وجْهَه إِليه"(٢).

وجاء في وصف النبي ﷺ كما ذكر ابن الأثير:" فِي صِفَته ﷺ [فَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا] أرادَ: أنَّه لَا يُسارق النَّظَر، وَقِيلَ: أَرَادَ لَا يَلْوِي عُنُقَه يَمْنَةً ويَسْرَةً إِذَا نَظَر إِلَى الشَّيْءِ، وَإِنَّمَا يَفْعل ذَلِكَ الطَّائِشُ الْخَفِيفُ، وَلَكِنْ كَانَ يُقْبل جَمِيعًا ويُدْبر جَمِيعًا ﷺ"(٣).

الالتفاتُ في اصطلاح اللغويين:

قال السيوطي:" ومن سنن العرب أن تُخاطب الشاهدَ ثم تحوّل الخطاب إلى الغائب، أو تُخاطب الغائبَ ثم تحوّله إلى الشاهد، وهو الالْتفاتُ، وأن تُخاطبَ المخاطب ثم يرجع الخطاب لغيره"(٤).

---

١ - مقاييس اللغة لابن فارس- تحقيق: عبد السلام هارون- ٥/ ٢٥٨- دار الفكر- ط١- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢ - لسان العرب لابن منظور- ٢/ ٨٤- دار صادر- بيروت- ط٣- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣ - النهاية في غريب الحديث والأثر- تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي- ٤/ ٢٥٨- المكتبة العلمية- بيروت- ط١- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤ - المزهر للسيوطي- تحقيق: فؤاد علي منصور- ١/ ٢٦٤- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

وقال الجرجاني:" الالتفات: هو العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم، أو على العكس"(١).

وقال الثعالبي:" الالتفات: هو أن تذكر الشيء وتتمَّ معنى الكلام به، ثم تَعودَ لذكْره، كأنَّك تلتَفِتُ إليه"(٢).

وقال ابن رشيق:" وهو الاعتراض عند قومٍ، وسمَّاهُ آخرون: الاستدراك، حكاه قدامةُ، وسبيله أن يكون الشاعر آخذًا في معنى، ثم يعرض له غيره، فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يُخلّ في شيء مما يشد الأول"(٣).

نشأة الالتفات، وتطوّر مصطلحه:

من المعلوم أنّ الالتفات كأسلوبٍ لغويٍّ كان معروفًا عند العرب في الجاهلية، ولكنه لم يكن يُعرف بهذا الاسم، ولعلَّ أول مَن أطلق عليه هذا الاسم هو: (الأصمعيّ) دون أن يذكر له تعريفًا، "وحُكى عن إسحاق الموصلي أنه قال: قال الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : وما هي ؟ قال(٤):

أَتَنْسَى إذ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى   بفرعِ بشامةٍ سُقِيَ البَشامُ

ولعل الأصمعيَّ نظر هنا إلى التحول من معنى إلى معنى، إذ انتقل الشاعر من توديع سلمى له، إلى الدعاء للبشام وهو عود الأراك، تراه مقبلاً على شعره إذ التفت إلى البشام فدعا له"(٥).

وهذا النموذج يدُلُّ على وجود هذا المصطلح منذ القرن الثاني الهجري غالبًا، وهذا يعتبر أول إشارة لهذا المصطلح (الالتفات)، ولكنه كأسلوبٍ بيانيٍّ قد ذكره بعض اللغويين في كتبهم قبل الأصمعي، من غير أن يسمّوه، وقد درسوه في كتبهم من خلال وروده في القرآن الكريم والأدب عمومًا، ومن هؤلاء: أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى في كتابه: "مجاز القرآن"، والفراء في كتابه:" معاني القرآن"، والأخفش الأوسط في كتابه:" معاني القرآن"، والمبرد في كتابه:" الكامل

١ - التعريفات للجرجاني- تحقيق: إبراهيم الأبياري- ص ٥١- دار الكتاب العربي- بيروت- ط١- ١٤٠٥هـ.

٢ - فقه اللغة وسر العربية للثعالبي- تحقيق: عبد الرزاق المهدي- ص٢٧٦- دار إحياء التراث العربي- ط١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٣ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق- تحقيق: محمد محيي الدين- ٢/ ٤٥- دار الجيل- ط٥- ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤ - البيت في ديوان جرير بشرح: محمد بن حبيب- تحقيق د: نعمان محمد - ٢/ ٢٧٩- دار المعارف- القاهرة- ط٣- دون سنة طبع.

٥ - العمدة لابن رشيق- ٢/ ٤٦.

في اللغة والأدب"، وابن فارس في كتابه: " فقه اللغة "، والعكبري في كتابيه: " التبيان في إعراب القرآن"، و" إملاء ما منّ به الرحمن"، وابن قتيبة في كتابه: " تأويل مشكل القرآن".

ولا يعنينا هنا استعراض أمثلة الالتفات عند كل عالمٍ من هؤلاء اللغويين، غير أنهم أطلقوا عليه مرةً (الاعتراض)، وأخرى (الاستدراك)، وأخرى (مخالفة ظاهر اللفظ معناه)، وأخرى (رجوعا) إلى غير ذلك.

مميزات دراسات اللغويين لموضوع الالتفات:

من خلال القراءة والتعرض لجهود أشهر اللغويين الذين تناولوا الحديث عن الالتفات في كتبهم اللغوية تبيّنت عدة صفات تميّزتْ دراستهم بها، وهي:

أولًا: لم يصرّح أحدٌ من اللغويين أو النحاة بالالتفات، وكانوا يطلقون عليه: الرجوع، أو التحويل، أو الترك، إلى غير ذلك، ولم يكونوا يحددونه أو يُعرّفونه كما هو الحال عند البلاغيين.

ثانيًا: لم يتعمّقوا في دراسة الالتفات في كتبهم، وإنّما كان حديثهم عنه بإشاراتٍ مُجملةٍ، وكانت دراستُهم له تبعًا لدراستهم اللغوية، أو لتوجيه القراءات في الآيات القرآنية التي يتعرضون لها في أبحاثهم.

ثالثًا: أغلب النحاة واللغويين لم يذكروا إلا نوعين من أنواع الالتفات في كتبهم؛ وهما: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

وهذا الاختلاف في مفهوم الالتفات عند اللغويين يؤكد ويبين أن التسمية كانت مضطربة، والمعنى غير واضح، مما يدل على أن اللغويين لم يتعمّقوا في مدلوله بشكلٍ واضحٍ؛ حتى جاء الزمخشري فتعمَّق في مفهومه وعَرّفه تعريفًا مُعَللًا، إذ استوعب مدلوله اللغوي، ووظيفته، وقد عوّل عليه البلاغيون تحديدًا، وأصبح له قيمةً بلاغيةً لم تكن موجودةً عندهم من قبله، مما يمكن القول: بأنَّ الالتفات وأسرار بلاغته من إضافة الزمخشري.

الالتفات عند البلاغيين:

لقد توسَّع البلاغيون في دراسة الالتفات بعد الزمخشري، وخير شاهد على ذلك أن البلاغيين من بعده تمثلوا بمفهومه وبأمثلته، وفي مقدمتهم السكّاكيّ، وجمهور البلاغيين من بعده، ولم نجد من يخالفه من البلاغيين إلا ابن الأثير، مع أنه تأثر به وسار على منهجه.

ووجه المخالفة عند ابن الأثير هو أن الزمخشري نصَّ على أن انتقال الكلام من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ تطريةً لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه، وهذا المفهوم لم يستحسنه ابن الأثير، إذ يقول:" ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من

أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، إنما يستعمل قصدًا للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل إليه، لا قصدًا لاستعمالِ الأحسنِ...، وهذا قولٌ فيه ما فيه، وما أعلمُ كيف ذهب على مثل الزمخشري مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة"(١).

وهذه الوقفةُ عند البلاغيين كانت مهمةً؛ للوقوف على طبيعة المصطلح وكيفية السير في هذا البحث على النحو المقصود منه، وهو دلالة هذا المصطلح في توجيه الخطاب القرآني، وهذا ما نستعرضه بإذن الله.

١ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير- ٢/ ٤ - تحقيق: محمد محيي الدين- المكتبة العصرية - بيروت- ط١- ١٤٢٠هـ.

المطلب الثانى: أقسام الالتفات وصوره.

ينقسم الالتفاتُ حسب تعريفه إلى أقسامٍ متعددةٍ، ترجع كلها إلى ثلاثة طرقٍ رئيسةٍ، وهي: التكلم، والخطاب، والغيبة، فينتج عنها ستّ صورٍ، وتأتي هذه الصور جميعًا مع الأفعال، والضمائر، والأعداد.

وذكر الأستاذ الدكتور: محمد أبو موسى في حديثه عن الالتفات، فقال:" هذا وقد اشتهر في تحديد الالتفات مذهبان: مذهب الجمهور، ومذهب السكاكي، أما الجمهور فيقولون في تحديده: إنه التعبير عن معنًى بطريقٍ من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريقٍ آخر منها، والطرق الثلاثة هي: التكلم، والخطاب، والغيبة، والالتفات عند الجمهور يتضمنُ ست صورٍ:

الأولى: الانتقال من التكلم إلى الخطاب. الثانية: من التكلم إلى الغيبة. الثالثة: من الخطاب إلى التكلم. الرابعة: من الخطاب إلى الغيبة. الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلم. السادسة: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب"(١).

وأضاف الزركشيُّ صورةً سابعةً، وهي:" بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه"(٢).

وذهب ابن الأثير إلى:" أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

القسم الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

القسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي"(٣).

وهذه الأقسام موجودةٌ في الشعر العربيِّ سواءٌ أكان شعرًا إسلاميًّا، أو جاهليًّا مع التفاوت بينهما من جهة الكثرة والقلة في الشعر عمومًا، كما أن هذه الأقسام الستة للالتفات موجودة في القرآن الكريم على رأي جمهور العلماء، إلا أنَّ السيوطي نفى وجود الالتفات من الخطاب إلى التكلّم في القرآن، فقال:" ومثاله من الخطاب إلى التكلم لم يقع في القرآن، ومَثَّلَ له

---

١ - خصائص التراكيب دراسةٌ تحليلية لمسائل علم المعاني- د: محمد محمد أبو موسى- ص٢٥٠- مكتبة وهبة- القاهرة- ط٧.

٢ - البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل- ٣/ ٣١٤، ٣١٥- دار المعرفة- بيروت- ط١- ١٣٩١هـ.

٣ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير- ٢/ ٣.

بعضهم بقوله تعالى(١):﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ثم قال تعالى:﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ وهذا المثال لا يصح؛ لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحدًا..."(٢).

وخلاصة القول في ذلك أنَّ الالتفات يُعدُّ أُسلوبًا من الأساليب التي تميَّز بها القرآن الكريم، والتي لا تكاد تخلو منه سورةٌ من سُوره، إذ ينتقل الكلام من التكلُّم إلى الخطاب وإلى الغيبة، ومن الخطاب إلى التكلم وإلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وإلى الخطاب، فهذه التقسيماتُ ينتج عنها ستُّ صورٍ، تمثل أقسام الالتفات عند أغلب اللغويين.

وهناك أقسامٌ أخرى كثيرةٌ للالتفات، وهي: انتقال الفعل من المستقبل إلى الأمر، ومن الماضي إلى المستقبل، ومن المستقبل إلى الماضي، وأيضًا شمل الالتفات انتقال الكلام من خطاب الواحد إلى الاثنين، وإلى الجمع والعكس وهكذا.

من خلال ما سبق يتضح أنَّ الأقسام المشهورة للالتفات عند جمهور اللغويين هي ستةُ أقسامٍ، وهي التي يعتمدُ عليها البحثُ وبيانها على النحو الآتي:

الانتقالُ من التكلم إلى الخطاب

الانتقال من التكلم إلى الغيبة

الانتقال من الخطاب إلى التكلم

الانتقال من الخطاب إلى الغيبة

الانتقال من الغيبة إلى التكلم

الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

وسوف أتناول بعضَ النماذج لهذه الأقسام لتوضيح أثر الالتفات ودلالته في الخطاب القرآني، مبيِّنًا دلالة الالتفات من خلال سياقاتها المختلفة في الخطاب القرآني، معتمدًا في ذلك على أقوال اللغويين، والمفسرين بما يخدم السياق كلما أمكن ذلك في كل موضعٍ على حدةٍ.

---

١ – سورة طه: ٧٢، ٧٣.

٢ – الإتقان للسيوطي – تحقيق: محمد أبو الفضل – ٣/ ٢٩٠ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط١ – ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية لبعض صور الالتفات في القرآن الكريم

الصورة الأولى: الانتقالُ من التكلُّم إلى الخطاب

إنَّ المقصود من هذه الصورة للالتفات هو: أن يكون السياق جاريًا على أسلوب التكلُّم، ثم يتحولُ الكلام إلى الخطاب باستخدام أحد ضمائره، قال الزركشي:" ووجهه حثُّ السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه، وأنه أعطاه فضلَ عنايةٍ وتخصيصٍ بالمواجهة"(١).

وقد ذهب بعضُ المعاصرين إلى أنه نادر الوقوع في العربية، بل لا يوجد في القرآن الكريم إلا موطنٌ واحدٌ لهذا النوع من الالتفات (تكلم- خطاب)، ولعلَّ السبب في ذلك هو التباين التام بين موقفي التكلم والخطاب، فيقول د: حسن طبل:" في محاولتنا المتواضعة لاستقصاء مواطن الالتفات في القرآن الكريم، لم نجدْ إلا موطنًا واحدًا للالتفات في تلك الصورة، والواقع أنَّ الالتفات في هذه الصورة مما يندُرُ تحقُّقهُ في لغة الكلام، وذلك للتوازي أو التباين التام بين موقعي الخطاب والتكلم، ففي الموقف أو السياق الواحد، لا يُتصور أن يكون الشخص الواحد –إلا على نحو من أنحاء التجوز- مُتكلمًا ومخاطَبًا أو مُرسَلًا ومُستقبِلًا في آنٍ واحدٍ، وقد سبق أنْ رأينا أنَّ صورة الالتفات لا تتحققُ إلا إذا كان المراد بالمتلفت إليه هو عين المراد بالمتلفت عنه"(٢)، أي: أنْ يكون المتلفتُ عنه يدلُّ على المتلفت إليه، وهذا شرط الالتفات.

من النماذج الواردة لهذه الصورة (بين التكلم والخطاب) في القرآن الكريم:

١-قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ (٣).

قال الكفوي(٤):" مثاله من التكلم إلى الخطاب قوله ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

---

١ - البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل- ٣/ ٣١٥.

٢ - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية- د: حسن طبل- ص ١١٦- دار الفكر العربي- القاهرة- ط١- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٣ - سورة الأنعام: ٧١، ٧٢.

٤ - الكليات للكفوي- تحقيق: عدنان درويش، وغيره- ص١٦٩- مؤسسة الرسالة - بيروت- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

إنَّ المتأملَ في هاتين الآيتين الكريمتين يجد أنَّ الأسلوب هنا قد انتقل من المتكلم وهو رسول الله ﷺ، إلى المخاطب وهم قومه على سبيل الالتفات في توجيه الخطاب القرآني بقوله: {وأن أقيموا الصلاة واتقوه}، وسياق الكلام: (وأمرنا أن نسلم وأن نقيم الصــلاة ونتقيه)، ولعلَّ الحكمة في توجيه هذا الخطاب القرآني هو التفاتُ الحوار؛ للتنبيه على أنَّ التوحيدَ لله تعالى بالتسليم له، ووجوب الامتثال لربُوبيَّته، مُقدَّمٌ على إقامة الصلاة وتحقيق التقوى؛ لذا كان العطف بإقامة الصلاة والتقوى من قبيل عطف العام على الخاص، وقد ختم الله تعالى هذا الخطاب بتنبيهٍ آخر بالعرض عليه ســبحانه وتعالى يوم القيامة للعرض والحساب، فقال: {وهو الذي إليه تحشرون} فكيف تخالفون أمره؟

وقال الرازي: " فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ حَسُنَ عَطْفُ قَوْلِهِ: وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ عَلَى قَوْلِهِ: وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ؟ قُلْنَا: ذَكَرَ الزَّجَّاجُ فِيهِ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ، وَأُمِرْنَا فَقِيلَ لَنَا أَسْلِمُوا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَإِنْ قِيلَ: هَبْ أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَكَرْتُمْ، لَكِنْ مَا الْحِكْمَةُ فِي الْعُدُولِ عَنْ هَذَا اللَّفْظِ الظَّاهِرِ وَالتَّرْكِيبِ الْمُوَافِقِ لِلْعَقْلِ إِلَى ذَلِكَ اللَّفْظِ الَّذِي لَا يَهْتَدِي الْعَقْلُ إِلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟

قُلْنَا: وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَافِرَ مَا دَامَ يَبْقِي عَلَى كُفْرِهِ، كَانَ كَالْغَائِبِ الْأَجْنَبِيِّ فَلَا جَرَمَ يُخَاطَبُ بِخِطَابِ الْغَائِبِينَ، فَيُقَالُ لَهُ: وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ، وَإِذَا أَسْلَمَ وَآمَنَ وَدَخَلَ فِي الْإِيمَانِ صَارَ كَالْقَرِيبِ الْحَاضِرِ، فَلَا جَرَمَ يُخَاطَبُ بِخِطَابِ الْحَاضِرِينَ، وَيُقَالُ لَهُ: وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، فَالْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْخِطَابِ: التَّنْبِيهُ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ حَالَتَيِ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ الْكَافِرَ بَعِيدٌ غَائِبٌ، والمؤمن قريب حاضر، والله أعلم"(١).

من خلال ما ســبق يتضــح أنَّ دلالةَ الالتفات في هذا الخطاب جاء للتنبيه على إقامة التوحيد لله تعالى أولًا، ثم إقامة الصلاة وتحقيق تقواه ﷻ خوفًا من العرض عليه يوم الحشر، فالخطاب جاء من الله ﷻ يخاطبُ نبيَّهُ ﷺ بقوله للمشركين:" {قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرـنا} أمره الله ســبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة، أي: كيف ندعوا من دون الله أصــنامًا لا تنفعنا بوجهٍ من وجوه النفع إن أردنا منها نفعًا، ولا نخشــى ضرّها بوجهٍ من الوجوه، ونُردُّ على أعقابنا كالذي اســتهوته الشــياطين في الأرض حيران لا يهتدى لجهةٍ، وقوله: {قل إن هدى الله هو الهدى} أمره الله ﷻ بأن يقول لهم: {إن هدى الله} أي: دينه الذى ارتضاه لعباده {هو الهدى} وما عداه باطلٌ، ومن جملة ما أمره الله بأن يقوله: {لنسلم} أي: أُمرنا

---

١ - تفسير مفاتيح الغيب للرازي- ١٣/ ٢٦، ٢٧- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط٣- ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، وينظر: روح المعاني للألوسي- تحقيق: علي عبد الباري- ٤/ ١٧٩- ط١- دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

لأجل نُسلم لرب العالمين، وقال الفراء: المعنى أمرنا بأن نسلم، وقوله: {وأن أقيموا الصلاة واتقوه} معطوف على {لنسلم} على معنى: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا"(١)، أي جاء الأمر بـ: الإسلام، وإقامة الصلاة، والتقوى، وقد الله تعالى هذا الخطاب بنفسه بهذه الأوامر لتعظيمها، وأهميتها في الإسلام.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢).

يدلُّ هذا الأسلوب على توجيه الخطاب القرآني وانتقاله، وحثِّ السامع على الاستماع للمتكلم، والالتفات في الآية الكريمة هنا، هو في انتقال الخطاب القرآني من المتكلم في (ومالي لا أعبد) إلى المخاطب وهو (ترجعون).

وسياق الخطاب كان يقتضي (وإليه أرجع)؛ لكي يتناسب مع المتكلم، لكنه هنا انتقل إلى الخطاب، دلالةً على حث السامع على الاستماع إلى المتكلم؛ لأنه أقبل عليه، وذلك لمزيد من العناية والاهتمام بالمخاطب من قبل المتكلم.

قال الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية وما بعدها:" فَإِنْ قُلْتَ لِمَ قَالَ مِنْ قَبْلُ: (وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي)، وقال هاهنا: (آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ) وَلَمْ يَقُلْ: آمَنْتُ بِرَبِّي؟ نَقُولُ: قَوْلُنَا الْخِطَابُ مَعَ الرُّسُلِ أَمْرٌ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: (آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ) ظَهَرَ عِنْدَ الرُّسُلِ أَنَّهُ قَبِلَ قَوْلَهُمْ، وَآمَنَ بِالرَّبِّ الَّذِي دَعَوْهُ إِلَيْهِ، وَلَوْ قَالَ: بِرَبِّي لَعَلَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: كُلُّ كَافِرٍ يَقُولُ لِي رَبٌّ، وَأَنَا مُؤْمِنٌ بِرَبِّي، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِنَا الْخِطَابُ مَعَ الْكُفَّارِ فَفِيهِ بَيَانٌ لِلتَّوْحِيدِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي، ثُمَّ قَالَ: (آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ) فُهِمَ أَنَّهُ يَقُولُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَاحِدٌ، وَهُوَ الَّذِي فَطَرَنِي وَهُوَ بِعَيْنِهِ رَبُّكُمْ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ آمَنْتُ بِرَبِّي، فَيَقُولُ الْكَافِرُ: وَأَنَا أَيْضًا آمَنْتُ بِرَبِّي "(٣).

وأوضح السيوطي أنَّ:" الْأَصْلَ (وَإِلَيْهِ أَرْجِعُ)، فَالْتَفَتَ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخِطَابِ، وَنُكْتَتُهُ: أَنَّهُ أَخْرَجَ الْكَلَامَ فِي مَعْرِضِ مُنَاصَحَتِهِ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ يُرِيدُ نُصْحَ قَوْمِهِ تَلَطُّفًا وَإِعْلَامًا أَنَّهُ يُرِيدُ لَهُمْ مَا يُرِيدُ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِمْ لِكَوْنِهِ فِي مَقَامِ تَخْوِيفِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

كَذَا جَعَلُوا هَذِهِ الْآيَةَ مِنَ الِالْتِفَاتِ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْهُ إِذَا قَصَدَ الْإِخْبَارَ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ، وَهُنَا لَيْسَ كَذَلِكَ لِجَوَازِ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ: "تُرْجَعُونَ" الْمُخَاطَبِينَ لَا نَفْسَهُ.

١- فتح القدير للشوكاني- ٢/ ١٤٨- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت- ط١- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢- سورة يس: ٢٢.

٣- تفسير الرازي ٢٦/ ٢٦٧.

وَأُجِيبُ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ ذَلِكَ لَمَا صَحَّ الِاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ؛ لِأَنَّ رُجُوعَ الْعَبْدِ إِلَى مَوْلَاهُ لَيْسَ بِمُسْتَلْزِمٍ أَنْ يُعِيدَهُ غَيْرُ ذَلِكَ الرَّاجِعِ، فَالْمَعْنَى: كَيْفَ لَا أَعْبُدُ مَنْ إِلَيْهِ رُجُوعِي، وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنْ "وَإِلَيْهِ أَرْجِعُ" إِلَى "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ أَفَادَ فَائِدَةً حَسَنَةً، وَهِيَ تَنْبِيهُهُمْ عَلَى أَنَّهُ مِثْلَهُمْ فِي وُجُوبِ عِبَادَةِ مَنِ إليه الرجوع"(١).

وذكر الألوسي لطيفةً جميلةً هنا، فقال حكايةً عن الرجل الناصح وهو- حبيب النجار-:" تلطَّف في إرشاد قومه بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما ينبىء عنه قوله:(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) مبالغة في تهديدهم بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب مواجهةً وتصريحًا، ولو قال: وإليه أرجع كان فيه تهديدٌ بطريق التعريض، وعُدَّ التعبير بإليه ترجعون بعد التعبير بما لي لا أعبد من باب الالتفات لمكان التعريض بالمخاطبين في (و ما لِيَ لا أَعْبُدُ) إلخ فيكون المعبر عنه في الأسلوبين واحدًا....

والأصل: (وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وإليه أرجع ومالكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون)، فحذف من الأول نظير ما ذكر في الثاني، وبالعكس وهو مفوت لما سمعت، وظاهر كلام الواحدي أنه لا تعريض في الآية حيث قال: لما قال الرجل: (يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) إلخ رفعوه إلى الملك، فقال له الملك: أفأنت تتبعهم؟

فقال: (ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي) أي: أيُّ شيءٍ لي إذا لم أعبد خالقي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تردون عند البعث فيجيزكم بكفركم، ورد عليه بأنه إذا رجع الإنكار إليه دون القوم لم يكن لخطابهم بـ(ترجعون) معنى وكان الظاهر أرجع"(٢).

وخلاصة القول في ذلك أنَّ الالتفات واقعٌ هنا في هذا الخطاب القرآني من صيغة المتكلم (وما لِيَ لا أعبد) إلى المخاطب (وإليه ترجعون) دون وإليه أرجع على نفس سياق الخطاب، والالتفاتُ يكون بما خالف الظاهر الذي يجري عليه السياق، وبناءً على ذلك فالمخالفُ للسياق لا يكون السابق، وإنما اللاحق هو الذي خالف الأول، إلا إذا منع ذلك مانعٌ.

لكنَّ الزمخشريّ حَكم على الأول بأنه هو الذي خالف الثاني، فقال:" ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: (آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني..."(٣).

---

١ - الإتقان للسيوطي ٣/ ٢٨٩.

٢ - روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٩٨، وينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢/ ٧، والبرهان للزركشي ٣/ ٣١٥.

٣ - تفسير الكشاف الزمخشري ٤/ ١٠.

لكن السؤال هنا ما هو دلالة هذا الالتفات من التكلم إلى الخطاب، وانتقال السياق من أرجع إلى (ترجعون)؟

والجوابُ مستوحىً مما سبق بأنه لـمّـا عبَّر عنهم بطريق التكلُّم تلطّف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح، حيث أراد لهم ما أراد لها تلطفًا وإعلامًا، فقد التفت على سبيل ذلك في قوله: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)؛ لإرادة تقريعهم وتخويفهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

وقد يتبادر إلى الذهن بأنه لو كان هذا الرجل – حبيب النجار- قد خاطب قومه فقال: (وإليه أرجع) دون التفاتٍ، لَقصرَ عبادته على الذي فطره، ثم إليه يرجعُ هُوَ لا هُمّ، فعدل إلى ذلك الخطاب بقوله: (وإليه ترجعون)، فكأنَّه يريد القول: ربكم هو ربي لا إله إلا هو، والسياق لم يعكس الالتفات، كأن يقول: الذي فطركم وإليه أرجع.

ولذلك قد نسب الفطر والخلق إلى نفسه؛ لأنّ المخاطبين يعتقدون ذلك أيضًا، أما الرجوع إلى الله فخصّهم به؛ لأنهم يشكُّون فيه، ولذا جاء الخطاب بالبناء للمجهول (تُرجعون)، فالرجوع أمرٌ حتميٌّ لا محالة، والله أعلم بمراده في كتابه.

والغرض من هذه الصورة هو: النصح والإرشاد، الحثّ على فعل أمرٍ ما، والتنبيه، والتخصيص، والعتاب واللوم.

الصورة الثانية: الانتقالُ من التكلُّم إلى الغيبة

إنَّ المقصود من هذه الصورة للالتفات هو: أن يكون السياق جاريًا على أسلوب التكلُّم، ثم يتحولُ سياق الخطاب إلى الغيبة باستخدام أحد ضمائرها، وهذا الأسلوب كثير في القرآن الكريم.

من النماذج الواردة لهذه الصورة (بين التكلم والغيبة) في القرآن الكريم:

١-قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ (١).

قال أبو حيان في قوله:" (مَا أَنْزَلْنَا): فِيهِ خُرُوجٌ مِنْ ظَاهِرٍ إِلَى ضَمِيرِ متكلم...، وقوله: (مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ): الضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ فِي بَيَّنَّاهُ عَائِدٌ عَلَى الْمَوْصُولِ الَّذِي هُوَ مَا أَنْزَلْنَا، وَضَمِيرُ الصِّلَةِ مَحْذُوفٌ، أَيْ مَا أَنْزَلْنَاهُ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: بَيَّنَّاهُ مُطَابِقَةً لِقَوْلِهِ: أَنْزَلْنَا. وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ: بَيَّنَهُ: جَعَلَهُ ضَمِيرَ مُفْرَدٍ غَائِبٍ، وَهُوَ الْتِفَاتٌ مِنْ ضَمِيرِ مُتَكَلِّمٍ إِلَى ضَمِيرِ غَائِبٍ"(٢).

---

١ - سورة البقرة: ١٥٩.

٢ - البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٦٨.

وقال الشيخ محمد الأمين:" قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ)، أتى بصلة (الَّذِينَ) فعلًا مضارعًا ليدل أيضًا على التجدد؛ لأن بقاءهم في الكتمان هو تجدد كتمانٍ، وجاء بالجملة المسند فيها الفعل إلى الله؛ لأنه هو المجازي على ما اجترحوه من الذنب، وجاءت الجملة الثانية؛ لأن لعنة اللاعنين مترتبة على لعنة الله للكاتمين، وأبرز اسم الجلالة بلفظ الله على سبيل الالتفات؛ إذ لو جرى على نسق الكلام السابق .. لكان أولئك نلعنهم، لكن في إظهار هذا الاسم الشريف من الفخامة، وإلقاء الروعة والمهابة في القلب ما لا يكون في الضمير"(١).

وخلاصة القول في هذا الخطاب أنّ فيه التفاتٌ من ضمير المتكلم إلى الغيبة، حيث لو جرى الخطاب على سياقٍ واحدٍ لكان (نلعنهم)، ولكن في إظهار الاسم الجليل (يلعَنُهُمُ الله) دلالةٌ على إلقاء الروعة والمهابة في القلوب.

٢-قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ (٢).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة التكلم، إذ قال الله ﷻ مخاطبًا المؤمنين: (مَا رَزَقْنَاكُمْ) مع الامتنان عليهم برزق الطيبات، ثم التفت إلى أسلوب الغيبة قائلًا: (وَاشْكُرُوا اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)، وكان مقتضى السياق أن يكون الخطاب: (واشكروا لنا إن كنتم إيانا تعبدون).

و قال أبو حيان:" (مَا رَزَقْنَاكُمْ): فِيهِ إِسْنَادُ الرِّزْقِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ بِنُونِ الْعَظَمَةِ، لِمَا فِي الرِّزْقِ مِنَ الِامْتِنَانِ وَالْإِحْسَانِ، (وَاشْكُرُوا للهِ): هَذَا مِنَ الِالْتِفَاتِ، إِذْ خَرَجَ مِنْ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ إِلَى اسْمِ الْغَائِبِ، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الِاسْمَ الظَّاهِرَ مُتَضَمِّنٌ لِجَمِيعِ الْأَوْصَافِ الَّتِي منها وصف الإنعام والرزق وَالشُّكْرِ، لَيْسَ عَلَى هَذَا الْإِذْنُ الْخَاصُّ، بَلْ يَشْكُرُ على سائر الإنعامات والامتنانات الَّتِي مِنْهَا هَذَا الِامْتِنَانُ الْخَاصُّ"(٣).

قال ابن عاشور:" وَالْعُدُولُ عَنِ الضَّمِيرِ إِلَى الِاسْمِ الظَّاهِرِ لِأَنَّ فِي الِاسْمِ الظَّاهِرِ إِشْعَارًا بِالْإِلَهِيَّةِ فَكَأَنَّهُ يُومِئُ إِلَى أَلَّا تُشْكَرَ الْأَصْنَامُ لِأَنَّهَا لَمْ تَخْلُقْ شَيْئًا مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ بِاعْتِرَافِ الْمُشْرِكِينَ أَنْفُسِهِمْ فَلَا تَسْتَحِقُّ شُكْرًا. وَهَذَا مِنْ جَعْلِ اللَّقَبِ ذَا مَفْهُومٍ بِالْقَرِينَةِ إِذِ الضَّمِيرُ لَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ إِلَّا فِي مَوَاضِعَ"(٤).

١-تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ محمد الأمين الهرري-٣/ ٧٠- دار طوق النجاة- بيروت- ط١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٢- سورة البقرة: ١٧٢.

٣- البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٠٩.

٤- التحرير والتنوير لابن عاشور ٢/ ١١٤.

وخلاصة القول أن هذا الخطاب فيه التفاتٌ من ضمير المتكلم (رزقنا) إلى الغيبة (واشكروا لله)، إذ لو جرى الخطاب على الأسلوب الأول لقال: واشكرونا، ودلالةُ هذا الالتفات قد يكون: التنبيه على أنَّ الرزقَ من صفات الألوهية التي تستلزم العبادة والطاعة لشكرها؛ لذا جاء الخطاب والتعبير بالاسم الظاهر (الله) دون الربّ؛ لأنّه ﷻ هو الرازق المستحق للعبادة، وكذلك للدلالة على وجوب شكر الله على جميع النعم، ومنها نعمة الرزق، وقد يكون للدلالة على المهابة كما قال أبو السعود:" (كلوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رزقناكم) أي: مستلَذّاته، (وا شكروا للهِّ) الذي رزقكموها، والالتفاتُ لتربية المهابة، وقوله: (إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ)، فإن عبادتَه تعالى لا تتم إلا بالشكر له"(١).

٣-قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ ﴾(٢).

وفي هذه الآية قد جرى الخطاب القرآني على طريقة التكلم، إذ قال الله ﷻ على لسان نبيِّه ﷺ: (إني رسول الله) فقد وصف النبيّ ﷺ رسالته للناس جميعًا، ثم انتقل الخطاب القرآني إلى طريق الغيبة –بالاسم الظاهر– فدعاهم إلى الإيمان، فكان الخطاب: (فآمنوا بالله ورسوله)، فلو كان الخطاب على سياقٍ واحدٍ لكان (فآمنوا بالله وبي)، قال الزركشي:" وقوله:(فآمنوا بالله ورسوله)، ولم يقل: (بي)، وله فَائِدَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: دَفْعُ التُّهمَةِ عَنْ نَفْسِهِ بِالْعَصَبِيَّةِ لَهَا، وَالثَّانِي: تَنْبِيهُهُمْ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ الِاتِّبَاعَ بِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْأُمِّيَّةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الِاتِّبَاعَ لِذَاتِهِ بَلْ لِهَذِهِ الْخَصَائِصِ"(٣).

وقال الزمخشري:" فإن قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: إني رسول الله إليكم؟ قلت: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر؛ لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولِما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائنًا من كان، أنا أو غيري، إظهارًا للنصفة وتفاديًا من العصبية لنفسه"(٤).

١ -تفسير أبي السعود– ١/ ١٩٠– دار إحياء التراث العربي– بيروت، وينظر: تفسير الألوسي ١/ ٤٣٩ .

٢ – سورة الأعراف: ١٥٨.

٣ – البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣١٧.

٤ – تفسير الكشاف للزمخشري ٢/ ١٦٧، وينظر: المثل السائر لابن الأثير ٢/ ١٠، وتفسير البيضاوي ٣/ ٣٨.

وذكر ابن عاشور أنَّ:" فِي قَوْلِهِ: (وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ) الْتِفَاتٌ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ؛ لِقَصْدِ إِعْلَانِ تَحَقُّقِ الصِّفَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا فِي التَّوْرَاةِ فِي شخص مُحَمَّد ﷺ"(١).

من خلال ما سبق يتضح أنَّ موضع الالتفات في قوله تعالى: (ورسوله) بصيغة الغيبة، بعد أنْ كان بصيغة التكلم في قوله: (إني رسول الله)، وكان السياق يقتضي أن يقال: فآمنوا بالله وبي، وقد دُرسَتْ هذه الآية في الانتقال من الاسم إلى الضمير.

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني بعد المبالغة بوجوب امتثال أمره، أمران: الأول: استحقاق مَن اتصف بتلك الصفات أنْ يُتبع ويطاع، والتعبير بالاسم الظاهر (رسوله) قد هيَّأ لاتّباعه بالصفات التي تقدمت في الآية الكريمة؛ لأنه ﷺ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته.

الثاني: دفع التهمة عن شخص النبي ﷺ بأنه مُتعصبٌ لنفسه في ادّعائه بالنبوة، والدلالة على أنه لا يدعو إلى الإيمان لذاته، بل إلى اتباعه بوصفه رسولًا مرسلًا من رب العالمين ﷻ، اصطفاه الله ليبلغ رسالته، والله أعلم بمراده.

قال الشيخ الشعراوي :" وانظروا إلى الدقة في الأداء، فما دام قد أمر الحق رسوله ﷺ أن يقول: (إني رسول الله إليكم جميعًا)، وحيثية الإيمان هي الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذي له ملك السموات والأرض، وهو لا إله إلا هو، وهو يحيي ويميت؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى: (فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) .

لم يقل محمدٌ ﷺ: وآمنوا بي؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك يا محمد، إنما هو تكريمٌ لرسالتك إلى الناس، فالإيمان لا بذاتك وشخصك، ولكن لأنك رسول الله، فجاء بالحيثية الأصلية (فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) ، والرسول قد يكون محمدًا أو غير محمد"(٢).

٤-قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾(٣).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية وسابقتيها على طريقة التكلم (وجعلنا)، ثم التفت الخطاب عن طريق الغيبة بأحد الضمائر الدالة على الله الخالق ﷻ، وقد ذكر الألوسي أنَّ:" قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

---

١ - التحرير والتنوير لابن عاشور ٩/ ١٤١- الدار التونسية- تونس- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢ - تفسير الشعراوي- ٧/ ٤٣٨٧- مطابع أخبار اليوم- القاهرة- دون سنة طبع.

٣ - سورة الأنبياء: ٣٢ - ٣٣.

اللذين هما آيتاهما؛ ولذا لم يعد الفعل بيانًا لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضــون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام، ولما كان إيجاد الليل والنهار ليس على نمط إيجاد الحيوانات وإيجاد الرواسي، لم يتحد اللفظ الدال على ذلك بل جيء بالجعل هناك، وبالخلق هنا ..." (١).

ودلالة الالتفات هنا تدل على تأكيد الاعتناءِ بفحوى الكلام، أي: هو ﷻ الذي خلقهن وحده؛ لكي يبين قدرة وسيطرة الباري ﷻ على هذا الكون، فهو خالقه ومبدعه، ودلالة الجملة من خلال تنوع الأسلوب في الخطاب الذي يحدثه تغيير الضمير في السياق، والله أعلم بمراده في كتابه.

٥-قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ (٢).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآيات على طريقة التكلم أولًا بنزول القرآن الكريم على النبي ﷺ في ليلة القدر المباركة بأمر من عند الله ﷻ، ولا ريب أنّ ليلة القدر فيها من الرحمات والبركات للمؤمنين، فالتفت بالخطاب هنا وعدل من التكلم (أنزلنا- من عندنا) إلى أسـلوب الغيبة (رحمةً من ربك)، ولو كان الخطاب على سـياقٍ واحدٍ لقال: (رحمة منا)، قال السمين:" وفي قوله: (مِنْ ربِّك) التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيْبة، ولو جَرَى على مِنْوالِ ما تقدَّم لقال: رحمةً منا"(٣).

وذكر الزمخشري أنَّ:" الأصل: إنا كنا مرسلين رحمة منا، فوضع الظاهر موضع الضمير، إيذانًا بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين"(٤).

وقال البيضــاوي قوله:" (إِنَّا كُنَّا مُرْسِـلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) بدل من (إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) أي أنزلنا القرآن؛ لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم، ووضع الرب موضع الضمير؛ للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك، فإنه أعظم أنواع التربية"(٥).

---

١ - تفسير الألوسي ٩/ ٣٨.

٢ - سورة الدخان: ٣ – ٦.

٣ - الدر المصون للسمين الحلبي- تحقيق: أحمد الخراط- ٩/ ٦١٧- دار القلم- دمشق.

٤ - تفسير الزمخشري ٤/ ٢٧١.

٥ - تفسير البيضاوي- تحقيق: محمد عبد الرحمن- ٥/ ٩٩- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ١٤١٨هـ.

وقال ابن عا شور: " وَإِيرَادُ لَفْظِ الرَّبِّ فِي قَوْلِهِ: مِنْ رَبِّكَ إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الإِ ضْمَارِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقُولَ: رَحْمَةً مِنَّا، وَفَائِدَةُ هَذَا الْإِظْهَارِ: الْإِشْعَارُ بِأَنَّ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَدْعِي الرَّحْمَةَ بِالْمَرْبُوبِينَ، ثُمَّ إِضَافَةُ (رَبِّ) إِلَى ضمير الرّسول ﷺ صَرْفٌ لِلْكَلَامِ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى مُواجهَة النبي ﷺ بِالْخِطَابِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي جَرَى خِطَابُهُمْ هَذَا بِوَاسِطَتِهِ فَهُوَ كَحَاضِرٍ مَعَهُمْ عِنْدَ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ إِلَيْهِمْ، فَيُصْرَفُ وَجْهُ الْكَلَامِ تَارَةً إِلَيْهِ ...، وَهَذَا لِقَصْدِ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ بَعْدَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

وَإِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَى ضمير الرّسول ﷺ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى حَظٍّ لَهُ فِي خِلَالِ هَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ بِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ: بِوَاسِطَتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الْإِرْسَالُ رَحْمَةً كَانَ الرَّسُول ﷺ رَحْمَةً، وَيُعْلَمُ مِنْ كَوْنِهِ ربّ الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ، إِذْ لَا يَكُونُ الرَّبُّ رَبَّ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، فَأَغْنَى عَنْ أَنْ يَقُولَ: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ؛ لِأَنَّ غَرَضَ إِضَافَةِ رَبِّ إِلَى ضمير الرَّسُول ﷺ يَأْبَى ذَلِكَ، ثُمَّ سَيُصَرِّحُ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ فِي قَوْلِهِ: (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)..." (١).

وتتبين دلالة الالتفات في هذا الخطاب أنَّ اللهَّ ﷻ أنزل القرآن من عنده متضمنًا وَحْيَهُ وشَرْعَهُ، وأنه ﷻ أرسل الرسل وجميع الأنبياء إلى الناس، رحمةً ورأفةً منه ﷻ إليهم، دلالةً على أن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين للقدرة عليهم، أو لتخصيص النبي ﷺ بالذكر.

وذكر ابنُ الأثير أن الخطاب في هذه الآية رجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد، ويعني بـخطاب النفس هو: التكلم بصيغة الضمير المعظم لنفسه في قوله: (إنا أنزلناه)، وبـخطاب الواحد هو: النبي ﷺ في قوله: (من ربك)، والفائدة المتحققة عند ابن الأثير هي تخصيص النبي ﷺ بالذكر، والإشارة إلى أن إنزال الكتاب إنما هو إليه من دون غيره.

قال ابن الأثير: " والفائدة هاهنا في الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد، تخصيص النبي ﷺ بالذكر، والإشارة بأنّ إنزال الكتاب إنما هو إليه، وإن لم يكن ذلك صريحاً، لكن مفهوم الكلام يدلُّ عليه"(٢).

□

---

١ – التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ٢٨١.

٢– المثل السائر لابن الأثير ٢/ ١٧٨.

الصورة الثالثة: الانتقالُ من الخطاب إلى التكلُّم

إنَّ المقصود من هذه الصورة للالتفات هو: أن يكون السياق جاريًا على أسلوب الخطاب باستخدام أحد ضمائره كالتاء أو الكاف أو غيرهما، ثم يتحولُ الخطاب إلى التكلُّم، فيكون المُـخاطَبُ المُوجَّه إليه الكلام أولًا مُتكلِّمًا عن نفسه.

ذكر د حسن طبل:" أنَّه لم يوجد إلا موطن واحد للالتفات في هذه الصورة، وذلك للتباين التام بين موقفي الخطاب والتكلم، ففي السياق الواحد لا يتصور أن يكون الشخص الواحد متكلمًا ومُخاطَبًا، أو مرسلًا ومستقبلًا في آنٍ واحدٍ"(١).

من النماذج التي قد تندرج تحت هذه الصورة (بين الخطاب والتكلم) في القرآن الكريم:

١-قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾(٢).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الخطاب، وهو قوله: (قل الله)، ثم التفت إلى التكلم وهو قوله: (إن رسلنا) على أنه ﷻ نزَّل نفسه منزلة المخاطب.

ودلالة هذا الالتفات هو: تهديدٌ من الله للمشركين على مكرهم؛ لأنه أسرع مكرًا من مكرهم، قال الرازي:" فَالْمَعْنَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ لَمَّا قَابَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ بِالْمَكْرِ، فاللَّهُ ﷻ قَابَلَ مَكْرَهُمْ بِمَكْرٍ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: مَا أَعَدَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَفِي الدُّنْيَا مِنَ الْفَضِيحَةِ وَالْخِزْيِ وَالنَّكَالِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ رُسُلَ اللَّهِ يَكْتُبُونَ مَكْرَهُمْ وَيَحْفَظُونَهُ، وَتُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مَا فِي بواطنهم الخبيثة يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْفَضِيحَةِ التَّامَّةِ والخزي والنكال نعوذ باللَّه تعالى منه"(٣).

ذكر أبو حيان أنَّ:" قراءة السَّبْعَة: بِالتَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ مُبَالَغَةً لَهُمْ فِي الْإِعْلَامِ بِحَالِ مَكْرِهِمْ، وَالْتِفَاتًا لِقَوْلِهِ: (قُلِ اللَّهُ) أَيْ: قُلْ لَهُمْ، فَنَاسَبَ الْخِطَابَ، وَفِي قَوْلِهِ: (إِنَّ رُسُلَنَا) الْتِفَاتٌ أَيْضًا..."(٤).

وقال الشيخ الشعراوي:" وكلمة (أَسْرَعُ مَكْرًا) تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان في سباقٍ، وحين تقول: فلان أسرع من فلانٍ، فمعنى ذلك: أن كلاً منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية، لكن هناك واحدًا أسرع من الآخر في الوصول إلى الغاية"(٥) والله أعلم بمراده في كتابه.

١- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية د: حسن طبل- ص ١١٧.

٢- سورة يونس: ٢١.

٣- تفسير الرازي ١٧/ ٢٣٢.

٤- البحر المحيط ٦/ ٣١.

٥- تفسير الشعراوي ١٠/ ٥٨٤٠.

٢-قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ ﴾ (١).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الخطاب، وهو قوله: (واستغفروا ربكم)، ثم التفت إلى التكلم وهو قوله: (إِنَّ رَبِّي)، وكان ظاهر السياق أن يقول: (إن ربكم)، والمعنى: واطلبوا من ربكم المغفرة مما أنتم عليه من عبادة الأوثان، وبَخْسِ الناسِ حُقُوقَهم في المكيال والميزان، ثم ارجعوا إلى طاعته، والانتهاء إلى أمره ونهيه.

وذكر ابن عا شور أنَّ:" جُمْلَةَ (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) تَعْلِيلٌ لِمَا يَقْتَضِيهِ الْأَمْرُ مِنْ رَجَاءِ الْعَفْوِ عَنْهُمْ إِذَا اسْتَغْفَرُوا وَتَابُوا، وَتَفَنَّنَ فِي إِضَافَةِ الرَّبِّ إِلَى ضَمِيرِ نَفْسِهِ مَرَّةً وَإِلَى ضَمِيرِ قَوْمِهِ أُخْرَى؛ لِتَذْكِيرِهِمْ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ كَيْلَا يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْإِعْرَاضِ وَلِلتَّشَرُّفِ بِانْتِسَابِهِ إِلَى مَخْلُوقِيَّتِهِ"(٢).

ودلالة الالتفات في هذه الآية إرشادٌ إلى أنَّ النَدَمَ على فعل الفساد والظلم بالتوبة، واستغفار الله ﷻ من أسباب خيري الدنيا والآخرة، وأيضًا للدلالة على خطاب النبي ﷺ بأن ربكم وربي واحدٌ، والله أعلم بمراده.

☐

١- سورة هود: ٩٠.

٢- التحرير والتنوير ١١/ ١٣٤، وينظر: تفسير حدائق الروح والريحان محمد الأمين ١٣/ ٢١٢.

الصورة الرابعة: الانتقال من الخطاب إلى الغيبة

إنَّ المقصود من هذه الصورة للالتفات هو: أن يكون السياق جاريًا على أسلوب الخطاب باستخدام أحد ضمائره كالتاء أو الكاف أو غيرهما، ثم يتحولُ الخطاب إلى الغيبة باستخدام أحد ضمائرها أيضًا كالهاء أو الياء أو غيرهما، فيكون المُـخاطَبُ المُوجَّه إليه الكلام أولًا غائبًا مُتحدَّثًا عنه آخرًا، ويُعدُّ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة من الأساليب التي زخر بها القرآن الكريم، وقد بين اللغويون والمفسرون ما ظهر لهم من علل هذا الأسلوب.

من النماذج التي قد تندرج تحت هذه الصورة (بين الخطاب والغيبة) في القرآن الكريم:

١-قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الخطاب، وهو قوله: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)، ثم التفت إلى الغيبة وهو قوله: (كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

قال أبو السعود قوله:" (وَمَا ظَلَمُونَا) كلامٌ عدَل به عن نهج الخطابِ السابقِ؛ للإيذان باقتضاء جناياتِ المخاطبين للإعراض عنهم وتَعدادِ قبائحهم عند غيرهم، معطوفٌ على مضمر قد حذف للإيجاز والإشعارِ بأنه أمرٌ محققٌ غنيٌّ عن التصريح به، أي: فظلموا بأن كفروا تلك النعمَ الجليلةَ، (وما ظلمونا) بذلك، (ولكن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بالكُفران، إذ لا يتخطاهم ضرورة، وتقديمُ المفعول للدلالة على القصْرِ الذي يقتضيه النفيُ السابقُ" (٢).

وذكر ابن عا شور علة هذا الالتفات وتغير السياق من الخطاب إلى الغيبة، فقال:" وَغَيَّرَ الْأُسْلُوبَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ، إِذِ انْتَقَلَ مِنْ خِطَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ؛ لِقَصْدِ الِاتِّعَاظِ بِحَالِهِمْ وَتَعْرِيضًا بِأَنَّهُمْ مُتَمَادُونَ عَلَى غَيِّهِمْ، وَلَيْسُوا مُسْتَفِيقِينَ مِنْ ضَلَالِهِمْ، فَهُمْ بِحَيْثُ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَهَذَا الظُّلْمُ الَّذِي قُدِّرَ فِي نَظْمِ الْآيَةِ هُوَ ضَجَرُهُمْ مِنْ مُدَاوَمَةِ أَكْلِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ...، فَكَانَ قَوْلُهُ: وَما ظَلَمُونا تَمْهِيدًا لَهُ وَتَعْجِيلًا بِتَسْجِيلِ قِلَّةِ شُكْرِهِمْ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِمْ، إِذْ كَانَتْ شَكِيمَتُهُمْ لَمْ تُلَيِّنْهَا الزَّوَاجِرُ وَلَا الْمَكَارِمُ" (٣).

١- سورة البقرة: ٥٧.

٢- تفسير إرشاد العقل السليم لأبي السعود- ١/ ١٠٤.

٣- التحرير والتنوير لابن عاشور - ١/ ٥١٢.

والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل (ظلمونا، يظلمون) للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر.

٢-قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (١).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الخطاب، وهو قوله: (مصدقًا لما معكم)، ثم التفت إلى أسلوب الغيبة بقوله: (أَوْ نَلْعَنَهُمْ)، قال الإمام الطبري:" يعني بقوله جل ثناؤه: (أو نلعنهم)، أو نلعنكم فنخزيكم ونجعلكم قردة، كما لعنا أصحاب السبت، يقول: كما أخزينا الذين اعتدوا في السبت من أسلافكم، قيل ذلك على وجه الخطاب في قوله: (آمِنُوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم)...، وقد يحتمل أن يكون معناه: (من قبل أن نطمس وجوها فنردَّها على أدبارها)، أو نلعن أصحاب الوجوه، فجعل الهاء والميم في قوله: (أو نلعنهم)، من ذكر أصحاب الوجوه، إذا كان في الكلام دلالة على ذلك"(٢).

وقال الزمخشري:" فإن قلتَ: لمن الراجع في قوله: (أَوْ نَلْعَنَهُمْ)؟ قلتُ: للوجوه إن أريد الوجهاء، أو لأصحاب الوجوه؛ لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قومٍ، أو يرجع إلى (الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) على طريقة الالتفات، أَوْ نَلْعَنَهُمْ، أو نجزيهم بالمسخ، كما مسخنا أصحاب السبت..."(٣).

وأوضح الرازي أنَّ في هذه الآية التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، فقال:" (أَوْ نَلْعَنَهُمْ) فَذَكَرَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمُغَايَبَةِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ أُولَئِكَ الْمُخَاطَبِينَ لَذَكَرَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْخِطَابِ، وَحَمْلُ الْآيَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا "(٤).

واستحسن أبو حيّان الالتفات في هذا الخطاب، فقال:" وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ فِي (نَلْعَنَهُمْ) قِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الْوُجُوهِ إِنْ أُرِيدَ بِهِ الْوُجَهَاءُ، أَوْ عَائِدٌ عَلَى أصحاب الوجوه؛ لأن الْمَعْنَى: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ قَوْمٍ، أَوْ عَلَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ، وَهَذَا عِنْدِي أَحْسَنُ، وَمُحَسِّنُ هَذَا الِالْتِفَاتِ هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا نَادَاهُمْ كَانَ ذَلِكَ تَشْرِيفًا لَهُمْ، وَهَزَّ السَّمَاعِ مَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَلْقَى إِلَيْهِمُ الْأَمْرَ بِالْإِيمَانِ بِمَا نَزَلَ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الَّذِي نَزَلَ هُوَ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ مِنْ كِتَابٍ، فَكَانَ ذَلِكَ أَدْعَى

١- سورة النساء: ٤٧.

٢- جامع البيان للطبري- تحقيق د: عبد الله التركي- ٧/ ١١٩- دار هجر للطباعة والنشر- ط١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣- تفسير الكشاف للزمخشري ١/ ٥١٩.

٤- تفسير الرازي ١٠/ ٩٦.

إِلَى الْإِيمَانِ، ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا الْوَعِيدَ الْبَالِغَ، فَحَذَفَ الْمُضَـافَ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: (مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا)، وَالْمَعْنَى: وُجُوهَكُمْ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: (أَوْ نَلْعَنَهُمْ)، فَأَتَى بِضَـمِيرِ الْغَيْبَةِ؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ حِينَ كَانَ الْوَعِيدُ بِطَمْسِ الْوُجُوهِ وَبِاللَّعْنَةِ لَيْسَ لَهُمْ لِيَبْقَى التَّأْنِيسُ وَالْهَمُّ وَالِاسْـتِدْعَاءُ إِلَى الْإِيمَانِ غَيْرَ مَشُـوبٍ بِمُفَاجَأَةِ الْخِطَابِ الَّذِي يُوحِشُ السَّـامِعَ وَيُرَوِّعُ الْقَلْبَ وَيَصِـيرُ أَدْعَى إِلَى عَدَمِ الْقَبُولِ، وَهَذَا مِنْ جَلِيلِ الْمُخَاطَبَةِ، وَبَدِيعِ الْمُحَاوَرَةِ"""(١).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني واضـحة، فالانتقال من الخطاب إلى الغيبة دافِعُه هنا التأنيس وإذهاب تلك الوحشـة المتوقعة عند السـامع لو كان الأمر بلفظ الخطاب، ولكن ارتقى هذا الخطاب القرآني ذلك الرقي في هذا الموضـع بالسياق، فإنّ له دورًا لا يُنكر، فإنما كان التأنيس هنا، لأن الله أرحم بعباده من أنفسهم، ولو تتبعنا سياق الآيات السابقة لهذا الموضع لوجدنا الحث على الطاعة وتقديم العروض التي لا تنكرها الفطرة ولا يمكن العقل إلاّ تصديقها.

٣-قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الخطاب، وهو قوله: (أن تميد بكم، لعلكم تهتدون)، ثم التفت إلى الغيبة بقوله: (وبالنجم هم يهتدون)، والمعنى هنا موجهٌ إلى قريش خاصـة، والمخلوقات عامة، قال ابن عاشـور:" انْتِقَالٌ إِلَى الِاسْـتِدْلَالِ وَالِامْتِنَانِ بِمَا عَلَى سَـطْحِ الْأَرْضِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي فِي وُجُودِهَا لُطْفٌ بِالْإِنْسَـانِ، وَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ لَمَّا كَانَتْ مَجْعُولَةً كَالتَّكْمِلَةِ لِلْأَرْضِ وَمَوْضُوعَةً عَلَى ظَاهِرِ سَطْحِهَا عَبَّرَ عَنْ خَلْقِهَا وَوَضْعِهَا بِالْإِلْقَاءِ...، وعَدَلَ عَنِ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ التفاتًا يومئ إِلَى فَرِيقٍ خَاصٍّ وَهُمُ السَّيَّارَةُ وَالْمَلَّاحُونَ، فَإِنَّ هِدَايَتَهُمْ بِهَذِهِ النُّجُومِ لَا غَيْرَ" (٣).

ويتسـاءل الزمخشـري، فيقول:" فإن قلتَ: قوله: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) مخرج عن سـنن الخطاب، مقدم فيه بِالنَّجْمِ، مقحم فيه (هُمْ)، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون، فمن المراد بـ(هُمْ)؟ قلت: كأنه أراد قريشًا: كان

١- تفسير البحر المحيط لأبي حيان- تحقيق: صدقي جميل- ٣/ ٦٦٩- دار الفكر- بيروت- ط١- ١٤٢٠هـ.

٢- سورة النحل: ١٥، ١٦.

٣- التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤/ ١٢٠.

لهم اهتداءٌ بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علمٌ لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخُصصوا"(١).

وذكر الرازي السبب في هذا الالتفات، فقال:" فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ: (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) خِطَابٌ لِلْحَاضِرِينَ، وَقَوْلُهُ: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) خِطَابٌ لِلْغَائِبِينَ فَمَا السَّبَبُ فِيهِ؟

قُلْنَا: إِنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تُكْثِرُ أَسْفَارَهَا لِطَلَبِ الْمَالِ، وَمَنْ كَثُرَتْ أَسْفَارُهُ كَانَ عِلْمُهُ بِالْمَنَافِعِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الِاهْتِدَاءِ بِالنُّجُومِ أَكْثَرَ وَأَتَمَّ، فَقَوْلُهُ: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) إِشَارَةٌ إِلَى قُرَيْشٍ لِلسَّبَبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ"(٢).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني، وانتقال السياق من الخطاب إلى الغيبة في قوله: (وبالنجم هم يهتدون)؛ لإفهام العموم بأن المخاطب غير مخصوصٍ، ومعنى: (وبالنجم هم)، أي: أهل الأرض كلهم لا قريش خصوصًا، والله أعلم بمراده.

٤-قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ ﴾ (٣).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الخطاب، وهو قوله: (أمتكم)، وموضع الالتفات هو قوله: (وَتَقَطَّعُوا) بلفظ الغيبة، فهو توبيخٌ لهم على ما فعلوه من تقطيع أمر دينهم إلى أحزابٍ شتّى، وهو تقبيحٌ لفعلهم هذا، لذا كان الالتفات أصلًا فيه إذ أريد إظهار قبح هذا الفعل لدى الجميع، فالتفت عنهم إلى الغيبة لينفي عليهم مثل هذا الفعل، كأن الأمر أو الفعل صادر عن غيرهم.

والضمير في (وَتَقَطَّعُوا) عائد على ضمير الخطاب على سبيل الالتفات، أي: وتقطعتم، ولما كان هذا الفعل من أقبح المرتكبات، عدل عن الخطاب إلى لفظ الغيبة، كأن هذا الفعل ما صدر من المخاطبين؛ لأن في الإخبار عنهم بذلك نعيًا عليهم ما أفسدوه، وكأنه يخبر غيرهم ما صدر من قبيح فعلهم.

١- تفسير الكشاف للزمخشري- ٢/ ٥٩٩.

٢- مفاتيح الغيب للرازي ٢٠/ ١٩١.

٣- سورة الأنبياء: ٩٢، ٩٣ .

قال الإمام الطبري: " وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي دِينِهِمُ الَّذِي أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَصَارُوا فِيهِ أَحْزَابًا، فَهَوَّدَتِ الْيَهُودُ، وَتَنَصَّرَتِ النَّصَارَى، وعُبِدَتِ الْأَوْثَانُ، ثُمَّ أَخْبَرَ ﷻ عَمَّا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ، وَأَنَّ مَرْجِعَ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ إِلَيْهِ، مُتَوَعِّدًا بِذَلِكَ أَهْلَ الزَّيْغِ مِنْهُمْ وَالضَّلَالِ، وَمُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ لَهُمْ بِالْمِرْصَادِ، وَأَنَّهُ مُجَازٍ جَمِيعَهُمْ جَزَاءَ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ"(١).

قال الزمخشري: " وَالْأَصْلُ وَتَقَطَّعْتُمْ، إِلَّا أَنَّ الْكَلَامَ صُرِفَ إِلَى الْغَيْبَةِ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ، كَأَنَّهُ يَنْقُلُ عَنْهُمْ مَا أَفْسَدُوهُ إِلَى آخَرِينَ، وَيُقَبِّحُ عِنْدَهُمْ فِعْلَهُمْ وَيَقُولُ لَهُمْ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى عَظِيمِ مَا ارْتَكَبَ هَؤُلَاءِ في دين الله"(٢).

وقال ابن عاشور موضحًا سياق هذا الخطاب القرآني: " (وتَقَطَّعُوا) وَضَمَائِرُ الْغَيْبَةِ عَائِدَةٌ إِلَى مَفْهُومٍ مِنَ الْمَقَامِ وَهُمُ الَّذِينَ مِنَ الشَّأْنِ التَّحَدُّثُ عَنْهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَذَامِّ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَمِثْلُ هَذِهِ الضَّمَائِرِ الْمُرَادُ مِنْهَا الْمُشْرِكُونَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الضَّمَائِرُ عَائِدَةً إِلَى أُمَمِ الرُّسُلِ، فَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي ضَمَائِرِ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً) يَكُونُ الْكَلَامُ انْتِقَالًا مِنَ الْحِكَايَةِ عَنِ الرُّسُلِ إِلَى الْحِكَايَةِ عَنْ حَالِ أُمَمِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ، أَوِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَهُمْ مِثْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِذْ نَقَضُوا وَصَايَا أَنْبِيَائِهِمْ، وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي تَكُونُ ضَمَائِرُ الْغَيْبَةِ الْتِفَاتًا"(٣).

ودلالة هذا الالتفات في هذه الآية هو التوبيخ، وكأن قبح الفعل مسوغًا لهذا التوبيخ، وإذا تأملنا سياق الآيات القرآنية السابقة لهذا الموضع، نجد أن الله تعالى قد قصَّ ما حدث للأنبياء والرسل من معاداة واستهزاء بهم، لأنهم كانوا على الحق المبين والصراط المستقيم، فبدأ بإبراهيم عليه السلام، ثم لوطٍ، ونوحٍ، ثم داود، وسليمان، ثم أيوب عليهم السلام، وهكذا حتى إذا انتهى من قصصهم وظهر صدق دعوتهم وبطلان عدوهم قال ﷻ: (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)، فإذا حصل التفرق بعد كل هذا البيان لهذا الدين من خلال تلك القصص وما فيها من حوادث، فإن ذلك يستوجب التوبيخ الشديد، ولاسيما أن ما حصل من التفرق والحزبية والعصبية ليس بالأمر السهل ولا الهين، بل هو من أقبح الأفعال التي تؤدي إلى هلاك الأمم هلاكًا كاملاً؛ لذا كانت دلالة الالتفات هي التوبيخ، والله أعلم بمراده في كتابه.

٥-قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٤).

١- تفسير الطبري ١٦/ ٣٩٣.

٢- الكشاف للزمخشري ٣/ ١٣٤، وينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٢/ ١٨٣، وتفسير البيضاوي ٤/ ٦٠، وتفسير أبو السعود ٦/ ٨٤.

٣- التحرير والتنوير ١٧/ ١٤١.

٤- سورة الروم: ٣٩.

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الخطاب، وهو قوله: (آتيتم، تريدون)، ثم التفت إلى الغيبة بقوله: (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)، وأشار المفسرون إلى أن السياق هنا أفاد التعظيم لهؤلاء المُنْــــــفِقِين، ومنهم مَن أشار إلى أن الالتفات للتعميم.

فالزمخشري يشير إلى أن الالتفات لغرض المبالغة في مدح هؤلاء القوم، فيقول: "وقوله تعالى: (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) التفاتٌ حسنٌ، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون، والمعنى: المضعفون به، لأنه لا بُدّ من ضمير يرجع إلى ما، ووجه آخر: وهو أن يكون تقديره: فمؤتوه أولئك هم المضعفون، والحذف لما في الكلام من الدليل عليه، و هذا أسهل مأخذًا، والأوّل أملأ بالفائدة"(١).

وقال البيضاوي:" والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفًا لحالهم، أو للتعميم كأنه قال: فمن فعل ذلك (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)، والراجع منه محذوف إن جعلت مَا موصولة تقديره المضعفون به، أو فَمُؤْتُوه أولئك هم المضعفون"(٢).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني هو المبالغة في مدح هؤلاء القوم وتعظيم الأجر يوم القيامة، وهذا أكثر من جعله للتعظيم أو التعميم كما سبق؛ لأن هذه الآية وردت في سياق آيات سابقة، حيث قال تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣).

فوصفهم الله ﷻ بصفة الخيرية، فقال: (ذلك خيرٌ)، ثم أراد أن يرفع شأنهم ويبالغ في درجات الخير بفعلهم هذا، فقال ﷻ: (أولئك هم المفلحون)، فوصفهم بالفلاح، فإذا أفاد الالتفات المبالغة في وصفهم كان سياق الكلام منسجمًا مع ما قبله، فيكون أرجح من كونه للتعظيم، أو التعميم، والله أعلم بمراده في كتابه.

□

١- تفسير الكشاف للزمخشري ٣/ ٤٨١.

٢- تفسير البيضاوي ٤/ ٢٠٨، وينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي-تحقيق: يوسف علي-٢/ ٧٠٢-دار الكلم الطيب-بيروت-ط١- ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣- سورة الروم: ٣٨.

الصورة الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلم

إنَّ المقصود من هذه الصورة للالتفات هو: أن يكون السياق جاريًا على أسلوب الغيبة باستخدام أحد ضمائرها أيضًا كالهاء أو الياء أو غيرهما، ثم يتحولُ الخطاب إلى صيغة التكلم، فيكون سياق الكلام غائبًا مُتحدَّثًا عنه أولًا، وحاضرًا متكلمًا عن نفسه آخرًا، ويُعدُّ الانتقال من الغيبة إلى التكلم من الأساليب التي زخر بها القرآن الكريم.

من النماذج التي قد تندرج تحت هذه الصورة (بين الغيبة والتكلم) في القرآن الكريم:

١-قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (١).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الغيبة، وهو قوله ﷻ: (أولئك يلعنهم الله)، ثم التفت إلى أسلوب التكلم بقوله ﷻ: (فأولئك أتوب عليهم)، ولو كان السياق على نسقٍ واحدٍ لكان الخطاب فأولئك يتوب عليهم، والآية مشتملة على الجمع والتفريق، فقد جمع الكاتمين في حكم واحدٍ، وهو أنهم ملعونون ثم فرَّق ﷻ، فقال: أما الذين تابوا فقد تاب الله تعالى عليهم وأزال عنهم عقوبة اللعنة، وأما الذين ماتوا على الكتمان ولم يتوبوا عنه، فقد استقرت عليهم اللعنة ولم تزل عنهم.

ذكر الألوسي حقيقة الانتقال والالتفات في هذا الخطاب القرآني إلى الغيبة والتكلم، فقال: " الالتفات إلى الغيبة بإظهار ا سم الذات؛ لتربية المهابة، والإ شعار بأن مبدأ صدور اللعن صفة الجلال المغايرة لما هو مبدأ الإنزال والتبيين من صفة الجمال.

ثم قال قوله ﷻ: " (وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) عطف على ما قبله تذييل له، والالتفات إلى التكلم للافتنان مع ما فيه من الرمز إلى اختلاف مبدأ فعليه السابق واللاحق "(٢).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب هو التفنن في النظم الكريم وتربية المها بة في القلوب، والمغايرة بر حمة الله بدلًا من لعنته، والتلويح فيه باختلاف المبدأ في فِعلَيه ﷻ: السابق وهو اللعن في قوله ﷻ: (أولئك يلعنهم الله)، واللاحق وهو الرحمة والتوبة في قوله ﷻ: (فأولئك أتوب عليهم)، والله أعلم بمراده.

١- سورة البقرة: ١٥٩ - ١٦٠.

٢- تفسير الألوسي ١/ ٤٢٦، ٤٢٧.

٢-قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ ﴾ (١).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الغيبة، وهو قوله ﷻ: (وقال الله)، ثم التفت إلى أسلوب التكلم بقوله ﷻ: (فإياي فارهبونِ)، قال الرازي: " وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ هَذَا الْكَلَامَ قَالَ: (إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ)، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمَّا دَلَّتِ الدَّلَائِلُ السَّابِقَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعَالَمِ مِنَ الْإِلَهِ، وَثَبَتَ أَنَّ الْقَوْلَ بِوُجُودِ الْإِلَهَيْنِ مُحَالٌ، ثَبَتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْحَقُّ الصَّمَدُ.

ثم قال بَعْدَهُ: (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) وَهَذَا رُجُوعٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْحُضُورِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ، وَثَبَتَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ إِلَهٌ، فَحِينَئِذٍ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ لِلْعَالَمِ إِلَّا الْمُتَكَلِّمُ بِهَذَا الْكَلَامِ، فَحِينَئِذٍ يَحْسُنُ مِنْهُ أَنْ يَعْدِلَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْحُضُورِ، وَيَقُولُ: فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ "(٢).

قال الزمخشري، في قوله ﷻ: " (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) نقلٌ للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأنّ الغالب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم "(٣).

وذكر الإمام أبو السعود أنَّ: " وصفَ الإله بالوَحدة في قولِه تعالى: (إِنَّمَا هُوَ إِله وَاحِدٌ)؛ للدلالة على أن المقصودَ إثباتُ الوحدانية، وأنها من لوازم الإلهية، وأما الإلهية فأمرٌ مسلَّمُ الثبوت له ﷻ، وإليه أُشير حيث أُسند إليه القول، وفيه التفاتٌ منَ التكلمِ إلى الغَيبةِ على رأي من اكتفى في تحققه بكون الأسلوب الملتفَتِ عنه حقَّ الكلام، ولم يشترط سبقَ الذكرِ على ذلك الوجه: (فإياي فارهبون) التفاتٌ من الغَيبةِ إلى التّكلمِ؛ لتربية المهابةِ وإلقاءِ الرهبة في القلوب، ولذلك قدم وكرر الفعلَ، أي: إن كنتم راهبين شيئًا فإيايَ ارهبوا، فارهبوا لا غيرُ، فإني ذلك الواحدُ الذي يسجُد لَهُ مَا فِي السموات والأرض "(٤).

وقال ابن عاشور: " وَتَفْرِيعُ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَفْرِيعًا عَلَى جُمْلَةِ: (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) فَيَكُونُ (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) مِنْ مَقُولِ الْقَوْلِ، وَيَكُونُ فِي ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ قَوْلِهِ: (فَارْهَبُونِ) الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ...

١- سورة النحل: ٥١.

٢- تفسير الرازي ٢٠/ ٢٢٠.

٣- تفسير الزمخشري ٢/ ٦١٠، وينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٢٢٩، وفتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٠٢.

٤- تفسير أبي السعود ٥/ ١١٩، وينظر: تفسير الألوسي ٧/ ٤٠٣.

وَوَقَعَ فِي ضَـمِيرِ (فَإِيَّايَ) الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ؛ لِمُنَاسَـبَةِ انْتِقَالِ الْكَلَامِ مِنْ تَقْرِيرِ دَلِيلِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ عَلَى وَجْهٍ كُلِّيٍّ إِلَى تَعْيِينِ هَذَا الْوَاحِدِ أَنَّهُ اللهُ مُنَزِّلُ الْقُرْآنِ تَحْقِيقًا لِتَقْرِيرِ الْعَقِيدَةِ الْأَصْـلِيَّةِ، وَفِي هَذَا الِالْتِفَاتِ اهْتِمَامٌ بِالرَّهْبَةِ لِمَا فِي الِالْتِفَاتِ مِنْ هَزِّ فَهْمِ الْمُخَاطَبِينَ"(١).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر، أي لا تخافوا غيري، فبعدما استحضر العبد عظمة ربه، وأقرّ له بالوحدانية وعَلِم أنه إله واحد، وليس إلهين، ناسب السياق هنا أنْ يُواجههم بقوله: (فَإِيَّايَ فارهبونِ)؛ لأنه أبلغ في الرغبة من قوله: فإيّاه فارهبوه، فإن الترهيب في التكلم المنتقل إليه أزيد، ثم التفت من التكلم إلى ضمير الغيبة في قوله: (وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ...).

قال الألوسي:" فيه التفات من الغيبة إلى التكلم على مذهب الجمهور أيضـا، والنكتة فيه بعد النكتة العامة، أعني الإيقاظ وتطرية الإصغاء المبالغة في التخويف والترهيب، فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب، سيما بعد وصفه بالوحدة، والألوهية المقتضية للعظمة، والقدرة التامة على الانتقام"(٢)، والله أعلم بمراده.

٣-قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٣).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الغيبة، وهو قوله ﷻ: (ضرب الله)، ثم التفت إلى أسـلوب التكلم بقوله ﷻ: (ومن رزقناه)، وفائدته تعظيم أمر الرزق الذي لا يتأتى إلاّ من عظيمٍ لا يدانيه في عظمته أحد، وأنه لا يملك العبد الإنفاق والهبة.

وقد دار الإمام أبو السعود حول هذا الانتقال، فقال قوله:" والالتفاتُ إلى التكلم للإشعار باختلاف حالَيِ ضرب المثل والرزق"(٤).

١- التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤/ ١٧٤.

٢- تفسير الألوسي ٧/ ٤٠٣.

٣- سورة النحل: ٧٥.

٤- تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٩.

وأضاف الألوسي قائلًا:" وفي اختيار ضمير العظمة تعظيمٌ لأمر ذلك الرزق، ويزيد ذلك تعظيمًا قوله سبحانه: (مِنَّا)، أي: من جنابنا الكبير المتعالي"(١).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني للتعظيم، فإن المتأمل في سياق الآيات السابقة يجد أنَّ الكلام يدور حول نعم الله تعالى عامة، والرزق خاصة، فالله ﷻ ذكر نعمة إنزال الماء، وإحياء الأرض بعد الموت، وحثّ السامعين والمشاهدين على التفكر فقال ﷻ: (وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)، ثم عدَّد بعد ذلك النعَمِ المختلفة على الناس؛ لبيان فضله ﷻ، وأنَّ رزقه لا يكون من بابٍ واحدٍ بل من أبوابٍ متعددةٍ، فتارةً يذكر الأنعام وكيفية إعطائها اللبن، وتارةً يذكر الثمرات والأعناب، وتارةً يذكر النحل التي يخرج من بطونها شرابٌ فيه شفاءٌ للناس، فكل هذه الأمور والنعم هي رزقٌ من الله ﷻ، وتفضيل البعض على بعض في هذا الرزق لحكمة اختصَّ بها، فلما كان سياق الكلام يدلُّ على الرزق بأنواعه المختلفة، وبيان أن الرازق هو الله ﷻ، كان تغاير الأسلوب في هذا الخطاب القرآني السامي، والتحول من الغيبة إلى التكلم، أدخل في الأسماع وأشد تعظيمًا لهذا الرزق والرازق ﷻ، والله أعلم بمراده.

٤-قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾(٢).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الغيبة، وهو قوله ﷻ: (جعل، وسلك، وأنزل)، ثم التفت إلى أسلوب التكلم بقوله ﷻ: (فأخرجنا)، وأشار المفسرون إلى أن هذا الخطاب القرآنيّ أفاد التعظيم لله ﷻ، ذلك التعظيم الذي يوجب على العباد الطاعة له والانقياد لأوامره ﷻ.

ونقل الرازي عن الزمخشري قائلًا:" قَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ»: انْتَقَلَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ الْغَيْبَةِ إِلَى لَفْظِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُطَاعِ لِلْإِيذَانِ، بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُطَاعٌ تَنْقَادُ الْأَشْيَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ لِأَمْرِهِ...، وقَوْله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً)، يَكُونُ التَّقْدِيرُ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا، فَيَكُونُ الِانْتِقَالُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ الْتِفَاتًا"(٣).

وقال البيضاوي في قوله:" (فَأَخْرَجْنا بِهِ) عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهًا على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، وإيذانًا بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته"(٤).

١- تفسير الألوسي ٧/ ٤٣٢.

٢- سورة طه: ٥٣.

٣- تفسير الرازي ٢٢/ ٦١.

٤- تفسير البيضاوي ٤/ ٣٠.

وذكر الشوكاني أنّ:" قوله: (فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجًا مِنْ نَباتٍ شَتَّى) مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْكَلَامِ الْمَحْكِيِّ عَنْ مُوسَى، مَعْطُوفٌ عَلَى أَنْزَلَ، وَإِنَّمَا الْتَفَتَ إِلَى التَّكَلُّمِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى ظُهُورِ ما فيه من الدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ" (١).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني تعظيم الله ﷻ، فقوله ﷻ:(فَأَخْرَجْنَا بِهِ) أي: فأخرج بذلك الماء أنواعًا من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة، كلُّ صنف منها زوج، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم تنبيهًا على عظمة الله ﷻ وكمال قدرته وحكمته.

ومن مظاهر عظمته ﷻ في هذا الخطاب أنه مهّد الأرض للإنسان وجعل فيها سُبُلًا، وأنزل من السماء ماءً، كل هذا بلفظ الغيبة، ثم أنه ﷻ لمّا أراد ذكر إخراج النبات من الأرض بسبب نزول الماء انتقل الخطاب إلى أسلوب التكلم، فقال ﷻ: (فأخرجنا به أزواجًا من نباتٍ شتّى)، وكان سياق الكلام أن يقال: فأخرج به، وكأنه ﷻ أراد أن ينقل الكلام عند الرزق إلى المتكلم؛ لينبّه السامع على أنّ رزقه مكفولٌ بعنايته ﷻ، وأنّ إخراج النبات من الأرض يدلُّ على عظمته ﷻ دلالة ا ستحقاقٍ للعبادة دون غيره، فهو سبحانه الخالق الرازق المدبر لهذا الكون؛ لذا نا سب انتقال الإ سناد إلى ضمير العظمة العائد إليه ﷻ .

قال الزمخشري قوله:" (فَأَخْرَجْنا) انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما ذكرت من الافتنان، والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئة، لا يمتنع شيء على إرادته" (٢).

وقال أبو حيان:" وَالْخِطَابُ لسامع؛ لِأَنَّ إِسْنَادَ إِنْزَالِهِ تَعَالَى لَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْعَقْلِ الْمُوَافِقِ لِلنَّقْلِ، وَإِنْ كَانَ إِنْزَالُ الْمَطَرِ مُشَاهَدًا بِالْعَيْنِ، لَكِنْ رُؤْيَةَ الْقَلْبِ قَدْ تَكُونُ مُسْنَدَةً لِرُؤْيَةِ الْبَصَرِ وَلِغَيْرِهَا، وَخَرَجَ مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ فِي قَوْلِهِ: (فَأَخْرَجْنا)، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَخَامَةِ، إِذْ هُوَ مُسْنَدٌ لِلْمُعَظَّمِ الْمُتَكَلِّمِ، وَلِأَنَّ نِعْمَةَ الْإِخْرَاجِ أَتَمُّ مِنْ نِعْمَةِ الْإِنْزَالِ لِفَائِدَةِ الْإِخْرَاجِ، فَأُسْنِدَ الْأَتَمُّ إِلَى ذَاتِهِ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ، وَمَا دُونَهُ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ"(٣)، والله أعلم بمراده.

<u>٥-قوله تعالى:</u> ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ﴾ (٤).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على طريقة الغيبة، وهو قوله ﷻ: (فَقَضَاهُنَّ، وَأَوْحَى)، ثم التفت إلى أسلوب التكلم بقوله ﷻ: (وَزَيَّنَّا)، وكان مقتضى السياق أن يقال: وزيَّن السماء الدنيا بمصابيح، وذلك لمزيد العناية بالأمر.

١- فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٣٦.

٢- تفسير الزمخشري ٣/ ٦٨.

٣- البحر المحيط لأبي حيان ٩/ ٢٨.

٤- سورة فصلت: ١٢.

قال الرازي:" وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا عُدُولٌ عَنِ الظَّاهِرِ، وَإِنَّمَا جَازَ الْعُدُولُ عَنِ الظَّاهِرِ إِذَا قَامَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِجْرَاؤُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ"(١).

وقال الزركشي في هذه الآية:" وزيَّنا السَّماءِ الدُّنْيَا بِالْمَصَابِيحِ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ الْإِخْبَارَ عَنْ مُدَّةِ خَلْقِ النُّجُومِ، فَالْتَفَتَ مِنَ الْغَيْبَةِ إلى التكلم، فقال: (زينا).

ثم قال أيضًا:" فَعَدَلَ عَنِ الْغَيْبَةِ فِي: (فَقَضَاهُنَّ) وَ(أَوْحَى) إِلَى التَّكَلُّمِ فِي: (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا)؛ لِلِاهْتِمَامِ بِالْإِخْبَارِ عَنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْكَوَاكِبَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا لِلزِّينَةِ وَالْحِفْظِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ طَائِفَةً اعْتَقَدَتْ فِي النُّجُومِ أَنَّهَا لَيْسَتْ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ حِفْظًا وَلَا رُجُومًا، فَعَدَلَ إِلَى التَّكَلُّمِ وَالْإِخْبَارِ عَنْ ذَلِكَ؛ لِكَوْنِهِ مُهِمًّا مِنْ مُهِمَّاتِ الِاعْتِقَادِ، وَلِتَكْذِيبِ الْفِرْقَةِ الْمُعْتَقِدَةِ بُطْلَانَهُ"(٢).

وقال أبو السعود:" (وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح) من الكواكب، فإنها كلَّها تُرى متلألئةً عليها كأنَّها فيها، والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبرازِ مزيدِ العنايةِ بالأمر"(٣).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني هو الاهتمام والعناية بالأمر، فالاهتمام الذي قصده الزركشي ـ وأبو السعود والألوسي إنما هو الاهتمام بالإخبار عن نفسه ﷻ، وكأن الله يريد أن يجعل الحقائق والأفعال العظيمة، التي لا يقدر على فعلها إلاّ هو ﷻ، أمام الناس منسوبة إليه مباشرة، فبدأ الحديث عن تلك الأفعال العظيمة من خلق السموات والأرض وجعل الرواسي بصيغة الغائب حتى إذا وصل إلى إتمام هذا الخلق بتزيين السماء بمصابيح، نسب الأمر إلى نفسه.

ولا شك أن إيجاد هذه المخلوقات العظيمة هو أعظم من تزيين السماء بالمصابيح، فإذا كان الأمر للاهتمام فنا سب أن يكون العكس، أي أن يكون إيجاد المخلوقات بصيغة التكلم، وتزيين السماء بصيغة الغيبة؛ لأن الإيجاد أعظم من التزيين، فالإيجاد كان بصيغة الغيبة، والتزيين بصيغة التكلم ولهذا كان الالتفات للاهتمام بأن الله ﷻ هو الخالق وهو المزيّن لا غيره، والله أعلم بمراده.

□

١- تفسير الرازي ٢٧/ ٥٥٠.

٢- البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٢٢، ٣٣٠.

٣- تفسير أبي السعود ٨/ ٧، وينظر: روح المعاني للألوسي ١٢/ ٣٥٦.

الصورة السادسة: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

إنَّ المقصود من هذه الصورة للالتفات هو: أن يكون السياق جاريًا على أسلوب الغيبة باستخدام أحد ضمائرها أيضًا كالهاء أو الياء أو غيرهما، ثم يتحولُ الكلام إلى صيغة الخطاب باستخدام أحد ضمائره كالكاف أو التاء أو غيرهما، فيكون سياق الكلام غائبًا مُتحدَّثًا عنه أولًا، ومخاطبًا في جملةٍ أخرى آخرًا، ويُعدُّ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب من الأساليب التي زخر بها القرآن الكريم.

من النماذج التي قد تندرج تحت هذه الصورة (بين الغيبة والخطاب) في القرآن الكريم:

١-قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ (١).

جرى الخطاب القرآني في هذه الآية على أسلوب الغيبة، وهو قوله ﷻ: (الحمد لله، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين)، ثم التفت إلى أسلوب الخطاب بقوله ﷻ:(إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين)، وكان مقتضى السياق أن يقال: إيَّاه نعبد وإيَّاه نستعين.

قال الزمخشري:" ومن الالتفات المذكور عند قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وهو فنّ من الكلام جزل، فيه هزّ وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكيًا عن ثالثٍ لكما: إنّ فلانًا من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلْتَ بخطابك إلى الثالث، فقلت: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي على جادّة السداد في مصادرك ومواردك، نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازًّا من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف، يستفتح الآذان للاستماع، ويستهش الأنفس للقبول"(٢).

وتساءل الرازي فقال:" لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: قَوْلُهُ: (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) كُلُّهُ مَذْكُورٌ عَلَى لَفْظِ الْغَيْبَةِ، وَقَوْلُهُ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) انْتِقَالٌ مِنْ لَفْظِ الْغَيْبَةِ إِلَى لَفْظِ الْخِطَابِ، فَمَا الْفَائِدَةُ فِيهِ؟ قُلْنَا فِيهِ وُجُوهٌ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُصَلِّيَ كَانَ أَجْنَبِيًّا عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي الصَّلَاةِ، فَلَا جَرَمَ أَثْنَى عَلَى اللهِ بِالْأَلْفَاظِ الْمُغَايِبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: حَمِدْتَنِي، وَأَقْرَرْتَ بِكَوْنِي إِلَهًا رَبًّا رَحْمَانًا رَحِيمًا مَالِكًا لِيَوْمِ الدِّينِ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ أَنْتَ قَدْ رَفَعْنَا الْحِجَابَ، وَأَبْدَلْنَا الْبُعْدَ بِالْقُرْبِ، فَتَكَلَّمْ بِالْمُخَاطَبَةِ، وَقُلْ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ.

١- سورة الفاتحة: ٢ – ٤.

٢- تفسير الزمخشري ١/ ٨٩، وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٢٧.

الْوَجْهُ الثَّانِي: إِنَّ أَحْسَنَ السُّؤَالِ مَا وَقَعَ عَلَى سَبِيلِ الْمُشَافَهَةِ...، وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّ الرَّدَّ مِنَ الْكَرِيمِ عَلَى سَبِيلِ الْمُشَافَهَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ بَعِيدٌ، وَأَيْضًا الْعِبَادَةُ خِدْمَةٌ، وَالْخِدْمَةُ فِي الْحُضُورِ أَوْلَى.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ مِنْ أَوَّلِ السُّــورَةِ إِلَى قَوْلِهِ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ ثَنَاءً، وَالثَّنَاءُ فِي الْغَيْبَةِ أَوْلَى، وَمِنْ قَوْلِهِ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ دُعَاءٌ، وَالدُّعَاءُ فِي الْحُضُورِ أَوْلَى.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: الْعَبْدُ لَمَّا شَرَعَ فِي الصَّلَاةِ وَقَالَ نَوَيْتُ أَنْ أُصَلِّيَ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ فَيَنْوِي حُصُولَ الْقُرْبَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ ذَكَرَ بَعْدَ هَذِهِ النِّيَّةِ أَنْوَاعًا مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، فَاقْتَضَى كَرَمُ اللَّهِ إِجَابَتَهُ فِي تَحْصِــيلِ تِلْكَ الْقُرْبَةِ، فَنَقَلَهُ مِنْ مَقَامِ الْغَيْبَةِ إِلَى مَقَامِ الْحُضُــورِ، فَقَالَ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)" (١).

وأوضح ابن الأثير سبب هذا العدول، فقال:" إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر، فقال: (الحمد لله).

ولم يقل: (الحمد لك)، ولَمَّا صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات، قال: (إياك نعبد)، فخاطب بالعبادة إصراحًا بها، وتقرّبا منه عزّ اسمه بالانتهاء إلى محدودٍ منها..." (٢).

قال الزركشي:" إِنَّ التَّأَدُّبَ فِي الْغَيْبَةِ دُونَ الْخِطَابِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْحَقِيقَ بِالْحَمْدِ وَأَجْرَى عَلَيْهِ بالصفات الْعَظِيمَةِ، مِنْ كَوْنِهِ: رَبًّا لِلْعَالَمِينَ، وَرَحْمَانًا وَرَحِيمًا، وَمَالِكًا لِيَوْمِ الدِّينِ، تَعَلَّقَ الْعِلْمُ بِمَعْلُومٍ عَظِيمِ الشَّــأْنِ، حَقِيقٍ بِأَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا دُونَ غَيْرِهِ مُسْتَعَانًا بِهِ، فَخُوطِبَ بِذَلِكَ لِتَمَيُّزِهِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ كُلِّهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِيلَ: إِيَّاكَ يَا مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ نَخُصُّ بِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ لا غيرك.

قيل: ومن اللطائف، التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ مُبْتَدَأَ الْخَلْقِ الْغَيْبَةُ مِنْهُمْ عَنْهُ سُــبْحَانَهُ، وَقُصُــورُهُمْ عَنْ مُحَاضَرَتِهِ، وَمُخَاطَبَتِهِ، وَقِيَامُ حِجَابِ الْعَظَمَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا عَرَفُوهُ بِمَا هُوَ لَهُ وَتَوَسَّــلُوا لِلْقُرْبِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَأَقَرُّوا بِالْمَحَامِدِ لَهُ، وَتَعَبَّدُوا لَهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ، تَأَهَّلُوا لِمُخَاطَبَاتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ، فَقَالُوا: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)" (٣).

وقال أبو السعود:" (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب، وتلوينٌ للنظم من بابٍ إلى بابٍ، حسبما يقتضي المقام، لِمَا أن التنقلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أدخلُ في استجلاب النفوسِ واستمالةِ القلوب يقع من كل واحدٍ من التكلم، والخطاب، والغَيبة إلى كلِّ واحدٍ من الآخَرَين" (٤).

١- تفسير الرازي ١/ ٢١٥.

٢- المثل السائر لابن الأثير ٢/ ٤.

٣- البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٢٧.

٤- تفسير أبي السعود ١/ ١٦.

وذكر الشوكانيّ سبب الالتفات في هذا الخطاب القرآني قائلًا:" وَعَدَلَ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ لِقَصْدِ الِالْتِفَاتِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ إِذَا نُقِلَ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى آخَرَ كَانَ أَحْسَنَ تَطْرِيَةً لِنَشَاطِ السَّامِعِ، وَأَكْثَرَ إِيقَاظًا لَهُ كَمَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي، وَالْمَجِيءُ بِالنُّونِ فِي الْفِعْلَيْنِ لِقَصْدِ الْإِخْبَارِ مِنَ الدَّاعِي عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ جِنْسِهِ مِنَ الْعِبَادِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمَقَامَ لَمَّا كَانَ عَظِيمًا لَمْ يَسْتَقِلَّ بِهِ الْوَاحِدُ اسْتِقْصَارًا لِنَفْسِهِ وَاسْتِصْغَارًا لَهَا، فَالْمَجِيءُ بِالنُّونِ لِقَصْدِ التَّوَاضُعِ لَا لِتَعْظِيمِ النَّفْسِ، وَقُدِّمَتِ الْعِبَادَةُ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ؛ لِكَوْنِ الْأُولَى وَسِيلَةً إِلَى الثَّانِيَةِ، وَتَقْدِيمُ الْوَسَائِلِ سَبَبٌ لِتَحْصِيلِ الْمَطَالِبِ، وَإِطْلَاقُ الِاسْتِعَانَةِ لِقَصْدِ التَّعْمِيمِ"(١).

وقال ابن عاشور:" وَمَا هُنَا الْتِفَاتٌ بَدِيعٌ -مِنْ فُنُونِ نَظْمِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ عِنْدَ الْعَرَبِ-، فَإِنَّ الْحَامِدَ لَمَّا حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَوَصَفَهُ بِعَظِيمِ الصِّفَاتِ بَلَغَتْ بِهِ الْفِكْرَةُ مُنْتَهَاهَا فَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ فِي حَضْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فَخَاطَبَ رَبَّهُ بِالْإِقْبَالِ"(٢).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني هي: تعظيم الله ﷻ وإفراده بالعبادة التي هي أقصى درجات التذلل والخضوع للخالق ﷻ، وكان الخطاب من أوّل السورة إلى وصف الله تعالى بالرحمن الرحيم ثناءً، والثناء في الغيبة أولى، والخطاب في قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) دعاءٌ، والخطاب في الدعاء أولى.

وكان السياقُ عاملًا مهمًّا في هذا الخطاب، وقد بيّن الشيخ الشعراويّ أهمية السياق في هذا الخطاب، فقال:" وكان السياق اللغوي يقتضي أن يقال: إياه نعبد، ولكن الله ﷻ غير السياق ونقله من الغائب إلى الحاضر، وقال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، فانتقل الغيب إلى حضور المخاطب، فلم يقل: إياه نعبد، ولكنه قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، فأصبحت رؤية يقين إيمانيّ.

حين يستحضر الحق ﷻ ذاته بكل هذه الصفات، التي فيها فضائل الألوهية، ونِعَم الربوبية، والرحمة التي تمحو الذنوب، والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب إلى محضر الشهود، استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته، ونعمه التي لا تُحدّ، وقيّوميته يوم القيامة.

عندما تقرأ قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فالعبارة هنا تفيد الخصوصية، بمعنى: أنني إذا قلتُ لإنسانٍ أنني سأقابلك، قد أقابله وحده، وقد أقابله مع جمعٍ من الناس، ولكن إذا قلتُ: إياك سأقابل، فمعنى ذلك: أن المقابلة ستكون خاصة"(٣).

١- فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٧.

٢- التحرير والتنوير ١/ ١٧٨، ١٧٩.

٣- تفسير الشعراوي ١/ ٧٧، ٧٨.

وذكر الزركشي الْمُنَاسَبَة بأَنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرُ التَّقَلُّبِ، وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرحمن، ويقلبه كَيْفَ يَشَاءُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ غَائِبًا فَيَحْضُرُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَآخَرُ يَكُونُ حَاضِرًا فَيَغِيبُ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَمَّا قال: (الحمد لله رب العالمين) تَنَبَّهَ السَّامِعُ وَحَضَرَ قَلْبُهُ، فَقَالَ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإياك نستعين) (١)، والله أعلم بمراده في كتابه.

٢-قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢).

جرى الخطاب القرآني من أسلوب الغيبة في الآية الأولى: (وقالوا اتخذ الرحمن) إلى أسلوب الخطاب في قوله: (لقد جئتم)، وذلك تنبيهًا على عِظَم وجُرْمِ ما قالوه، وهذا دالٌّ على جهلهم بالله ﷻ وقدرته.

قال الزمخشري:" وفي قوله: (لَقَدۡ جِئۡتُمۡ) وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة، وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة، زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله، والتعرّض لسخطه، وتنبيه على عظم ما قالوا"(٣).

قال ابن الأثير:" وإنما قيل: (لقد جئتم)، وهو خطابٌ للحاضر بعد قوله: (وقالوا)، وهو خطابٌ للغائب؛ لفائدةٍ حسنةٍ، وهي: زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه، منكرًا عليهم، وموبّخا لهم"(٤).

وقال النسفي:" خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة، وهو التفاتٌ، أو أمر نبيه ﷺ بأن يقول لهم ذلك" (٥).

وقال الزركشي-عند الالتفات:" مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ، كَقَوْلِهِ: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا)، ولم يقل: لَقَدْ جَاءُوا؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ مثل قولهم: ينبغي أن يكون مُوَبَّخًا وَمُنْكَرًا عَلَيْهِ قَوْلُهُ، كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ بِهِ قَوْمًا حَاضِرِينَ.

وقال أيضًا:" عَدَلَ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ قَائِلَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُوَبَّخًا وَمُنْكَرًا عَلَيْهِ، وَلَمَّا أَرَادَ تَوْبِيخَهُمْ عَلَى هَذَا أَخْبَرَ عَنْهُ بِالْحُضُورِ، فَقَالَ: (لَقَدْ جِئْتُمْ)؛ لِأَنَّ تَوْبِيخَ الْحَاضِرِ أَبْلَغُ فِي الْإِهَانَةِ لَهُ"(٦).

وذكر الشوكانيُّ أَنَّ:" فِي قَوْلِهِ: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا) الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ، وَفِيهِ رَدٌّ لِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الشَّنْعَاءِ، وَالْإِدُّ كَمَا قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الدَّاهِيَةُ وَالْأَمْرُ الْفَظِيعُ"(٧).

١- البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٢٤- ٣٢٦.

٢- سورة مريم: ٨٨ – ٨٩.

٣- تفسير الزمخشري ٣/ ٤٤.

٤- المثل السائر لابن الأثير ٢/ ٥.

٥- تفسير النسفي ٢/ ٣٥٣.

٦- البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٢٢، ٣٣٠.

٧- فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤١٥.

ووضّح الألوسيُّ قُبح قولهم ووقاحتهم وجهلهم، فقال:" وقوله تعالى: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا) ردٌّ لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط، وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة، والجهل، والجرأة"(١).

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب القرآني هو التنبيه على قمة الجهل الذي وصل إليه هؤلاء المجرمون الذين اتَّهموا الله ﷻ بأنه اتخذ ولدًا، ومما يدلُّ على غضب الله من هذا القول أن السماوات السبع وما فيهن تكاد أن تتشقق من هذا القول الشنيع، وكذلك الأرض تكاد أن تنخسف وتتصل أجزاؤها؛ لشدَّة وجُرم هذا القول، وكذلك الجبال تكادُ أن تخرَّ وتسقط قطعًا من سماع أقوالهم، إنكارًا على ما قالوه وما ارتكبوه، وهذا الأمر مبالغةٌ في ذمِّ قولهم وجرأتهم على الله ﷻ، والله أعلم بمراده.

٣-قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ (٢).

جرى الالتفات في الخطاب القرآني لهذه الآية، وورد الالتفات في قوله تعالى: (فاتقونِ) حيث عدل عن صيغة الغيبة في قوله: (ينزل)، وقد جاء الالتفات لعلةٍ يقتضيها السياق، وهو تحذيره من عبادة الأوثان ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه، ودل على ذلك قوله: (فاتقونِ).

إنَّ المتأمل في هذا الخطاب يجد أن السبب في الالتفات هو التخويف والتحذير، التحذير مما يخاف الإنسان ويحذر منه، لأن الخطاب إنما جاء من الغيبة للخطاب، أي: الزموا التقوى، أو زد في تقواك لله، فخوطب المتلقي بالتخويف والتحذير ليحذر، لذا قال ﷻ : (فاتقونِ)، وهذا التنوع في الأسلوب هو سبب حضور ذهن المخاطب.

وقال الشوكاني:" أَقُولُ لَكُمْ أَنْذِرُوا، أَيْ: أَعْلِمُوا النَّاسَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَيْ: مُرُوهُمْ بِتَوْحِيدِي، وَأَعْلِمُوهُمْ ذَلِكَ مَعَ تَخْوِيفِهِمْ؛ لِأَنَّ فِي الْإِنْذَارِ تَخْوِيفًا وَتَهْدِيدًا، وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهُ لِلشَّأْنِ (فَاتَّقُونِ) الْخِطَابُ لِلْمُسْتَعْجِلِينَ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ، وَهُوَ تَحْذِيرٌ لَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَرْشَدَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِهِ ذَكَرَ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: (خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أَيْ: أَوْجَدَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي هُمَا عَلَيْهَا بِالْحَقِّ، أَيْ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَقِّ هُنَا: الْفَنَاءُ وَالزَّوَالُ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَيْ: تَرَفَّعَ وَتَقَدَّسَ عَنْ إِشْرَاكِهِمْ، أَوْ عَنْ شَرِكَةِ الَّذِي يَجْعَلُونَهُ شَرِيكًا لَهُ"(٣).

ودلالة الالتفات في الآية الكريمة عن الغيبة إلى الخطاب هو: التخويف والتحذير من الشرك بالله، وإبراز أهمية تقوى الله ﷻ، وإعلاء شأن موضوع الخطاب؛ لأن إنزال الملائكة، وبعث الرسل، وإنزال الكتب، كل ذلك لأجل أن نتقي

١- روح المعاني للألوسي ٨/ ٤٥٤.

٢- سورة النحل: ٢.

٣- فتح القدير للشوكاني ٣/ ١٧٧.

الله ﷻ في كل ما نأتي وما نذر، وقد تقدم أن في الكلام حينئذ التفاتًا، وهو مبنيٌّ على أنّ الخطاب السابق للكفار، أما إذا كان للمؤمنين، أو لهم وللكفار، فلا يتحد معنى الضميرين حتى يكون التفات، والله أعلم بمراده.

٤-قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (١).

جرى الالتفات في هذا الخطاب القرآني، حيث ورد في قوله: (فتمتعوا)، وكان مقتضى السياق أن يقال: (فيتمتعوا)، لملائمة السياق، فنقل الكلام من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخر؛ تطرية واستدرارًا لجذب انتباه السامع، وتجديدًا لنشاطه، فالكلام يحسُن عندما ينتقل به من أسلوب لآخر، ومن حالة إلى أخرى

وقال أبو السعود قوله:" (ليكفروا بما آتيناهُم) من نعمةِ الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضَهم في الشرك كفران النعمة، وإنكارَ كونها من الله ﷻ، (فَتَمَتَّعُوا) أمرُ تهديدٍ، والالتفاتُ إلى الخطابِ؛ للإيذانِ بتناهي السخط" (٢).

وذكر الشوكانيّ أن اللام في قوله:" (لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ) لَامُ كَيْ، أَيْ: لِكَيْ يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ نعمة كشف الضرّ، وحتى كَأَنَّ هَذَا الْكُفْرَ مِنْهُمُ الْوَاقِعُ فِي مَوْضِعِ الشُّكْرِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ غَرَضٌ لَهُمْ، وَمَقْصِدٌ مِنْ مَقَاصِدِهِمْ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْعُتُوِّ وَالْعِنَادِ لَيْسَ وَرَاءَهَا غَايَةٌ، وَقِيلَ: اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ، يَعْنِي: مَا كَانَتْ عَاقِبَةُ تِلْكَ التَّضَرُّعَاتِ إِلَّا هَذَا الْكُفْرَ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهْدِيدِ وَالتَّرْهِيبِ مُلْتَفِتًا مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ: (فَتَمَتَّعُوا) بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ وَمَا يَحِلُّ بِكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَمَا تَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ"(٣).

قال الهرري:" خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع، فقال: (فَتَمَتَّعُوا) بكفركم قليلًا إلى وقت آجالكم، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والأمر فيه: للتهديد أيضًا، أي: فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء، وسعة النعمة في الدنيا، فما هي إلا أوقات قصيرة تمضي كلمح البصر، ثم هددهم أشد التهديد بقوله: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) في الآخرة إذا وردتم على عاقبة تمتعكم، وما يصيبكم من شديد عذابي، وعظيم عقابي على كفركم بي في الدنيا"(٤).

١- سورة النحل: ٥٥.

٢- تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٠، وينظر: تفسير الألوسي ٧/ ٤٠٦.

٣- فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٠٣.

٤- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ٢٢/ ١٤٥.

ودلالة الالتفات في هذا الخطاب هي: تغليظ الوعيد، فلام الأمر الغرض منها التهديد والوعيد كفران النعمة ، ومخاطبتهم بأمرهم بالتمتع أمر إمهال، وقلة اكتراث بهم، والخطاب للفريق الذين يشركون بربهم على طريقة الالتفات؛ لأنهم أنكروا كون هذه النعم من الله فسينزل بهم العذاب ويرونه بأعينهم، عاقبةَ أمرِهم، وفيه وعيدٌ أكيدٌ منبئٌ عن أخذٍ شديدٍ، والله أعلم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الخاتمة

أَحْمَدُ الله تعالىٰ علىٰ ما وفَّق وأرشد، وبيَّن وسدَّد، والصلاة والسلام علىٰ خير البشر محمد ﷺ، وبعد:

فإنَّ الالتفاتَ في الخطاب القرآنيّ سرٌّ عظيمٌ من أسرار اللغة العربية، فإنه يُفاجئ المستمع ويُثير دهشته؛ لخروجه عن المتوقع لديه من اطراد السياق علىٰ نمطٍ واحدٍ من المطابقة، مما يدعوه ذلك إلىٰ البحث عن سياقه، وأبعاده الدلالية؛ لذلك حاول البحث الوقوف علىٰ بعض صور هذا الالتفات وأثره في التعبير القرآني، من الناحية الدلالية، بعيدًا عن الناحية البيانية التي تخصّ علماء البلاغة، فهذه الظاهرة تبرز وجهًا من وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، الذي تحدّىٰ فصحاء العرب أن يأتوا بمثله، وكان السياقُ وأقوال اللغويين والمفسرين هم المعتمدُ عليهم في توثيق النصوص، وتحليل الآراء المتعلقة بالآيات موضوع البحث، وآملُ من الله أن أكون قد وُفقتُ في ذلك، وما أنا إلا حاطبُ ليلٍ أحاول جمع الأقوال والآراء الداعمة لهذا الالتفات في الخطاب القرآني من الناحية الموضوعية الدلالية، ومن أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث:

<u>أولًا: النتائج:</u>

١-القرآن الكريم يزخر بنماذج كبيرة جدًا تُعالَجُ ضمن ظاهرة الالتفات، بينما يقلُّ ويندُرُ الالتفاتُ بين صورتي: (التكلم والخطاب)؛ نظرًا للتباين التام بينهما، حيث يبعد أن يكون المتكلم هو المخاطَبُ في الوقت نفسه.

٢-السياقُ ركنٌ مهمٌّ في تحديد الغرض من الالتفات في الخطاب القرآني خصوصًا، وعلوم اللغة العربية عمومًا.

٣-دُرر الالتفات في الخطاب القرآني هي موضع اجتهادٍ بين أهل العلم، فقد يفتح الله لعالمٍ دون الآخر، وما زال الباب مفتوحًا إلىٰ قيام الساعة لاستخراج كنوز العلوم لدىٰ أي باحثٍ.

٤- قدرة الالتفات علىٰ توجيه الخطاب القرآني لدىٰ المتكلم والمتلقِّي فيه العديد من الدلالات التي تُثري السياق اللغوي والدلالي.

<u>ثانيًا: التوصيات:</u>

-الاعتناءُ بالظواهر اللغوية والدلالية المتعلقة بالقرآن الكريم؛ للوقوف علىٰ الأسرار والدُّرر ومواطن الجمال، وبيان إعجاز القرآن الكريم الذي تحدَّىٰ العرب فيما أبدعوا فيه.

-البحثُ في القراءات القرآنية التي وقع فيها الالتفات، فالقرآن الكريم بجميع قراءاته قد شمل جميع أقسام الالتفات، وهذا يعني أن الأقسام التي لم ترد ضمن قراءةٍ، يمكن أن تقع في القراءات الأخرىٰ.

-البحث في الالتفات في تحول الأفعال من الماضي إلىٰ المضارع والعكس، وكذلك تحول الضمائر، والأعداد.

□

فهرس المصادر والمراجع

١-الإتقان للسيوطي- تحقيق: محمد أبو الفضل- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ط١- ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢-أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية- د: حسن طبل- دار الفكر العربي- القاهرة- ط١- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٣-البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل- دار المعرفة- بيروت- ط١- ١٣٩١هـ.

٤-التحرير والتنوير لابن عاشور - الدار التونسية- تونس- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٥-التعريفات للجرجاني- تحقيق: إبراهيم الأبياري- دار الكتاب العربي- بيروت- ط١- ١٤٠٥هـ.

٦-تفسير أبي السعود- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٧-تفسير البيضاوي- تحقيق: محمد عبد الرحمن- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ١٤١٨هـ.

٨-تفسير الشعراوي - مطابع أخبار اليوم- القاهرة- دون سنة طبع.

٩-تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ محمد الأمين الهرري- دار طوق النجاة- بيروت- ط١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٠-جامع البيان للطبري- تحقيق د: عبد الله التركي- دار هجر للطباعة والنشر- ط١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١١-خصائص التراكيب دراسةٌ تحليلية لمسائل علم المعاني- د: محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة- القاهرة- ط٧.

١٢-الدر المصون للسمين الحلبي- تحقيق: أحمد الخراط- دار القلم- دمشق.

١٣-ديوان جرير بشرح: محمد بن حبيب- تحقيق د: نعمان محمد - دار المعارف- القاهرة- ط٣- دون سنة طبع.

١٤-روح المعاني للألوسي- تحقيق: علي عبد الباري- ط١- دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٥-العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق- تحقيق: محمد محيي الدين- دار الجيل- ط٥- ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٦-فتح القدير للشوكاني- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت- ط١- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٧-فقه اللغة وسر العربية للثعالبي-تحقيق: عبد الرزاق المهدي- دار إحياء التراث العربي- ط١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١٨-الكليات للكفوي- تحقيق: عدنان درويش، وغيره- مؤسسة الرسالة - بيروت- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٩-لسان العرب لابن منظور- دار صادر- بيروت- ط٣- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٠-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير- تحقيق: محمد محيي الدين- المكتبة العصرية- بيروت- ط١- ١٤٢٠هـ.

٢١- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي- تحقيق: يوسف علي-دار الكلم الطيب- بيروت-ط١- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٢-المزهر للسيوطي- تحقيق: فؤاد علي منصور- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤١٨ه/ ١٩٩٨م.

٢٣-مفاتيح الغيب للرازي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط٣- ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٤-مقاييس اللغة لابن فارس- تحقيق: عبد السلام هارون- دار الفكر- ط١- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٥-النهاية في غريب الحديث والأثر- تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي- المكتبة العلمية- بيروت- ط١- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.